Digital © Al-Kalimah

الفهـــرس

Digital © Al-Kalimah

علم الاجتماع المعاصر بين عوائقه الابستمولوجية وقطيعته الابستمولوجية المأمولة

محمـــد وقيـــدى

— 1 —

يبدو ، ونحن نضع اشكال علم الاجتماع المعاصر فى صيغة تقابل بين العوائق الابستمولوجية والقطيعة الابستمولوجيـــة ، اننـــا نريد أن نفكر فى الواقع الحالى لعلم الاجتمـــاع وفقـــا للتصور الباشلارى لتـــاريخ العلوم • ويقوم هـــذا التصـــور الباشلارى عى االنظر الى تاريخ العلـــوم بوصفه محلا لجـــدل مستمر بين العوائق الابستمولجية والقطيعات الابستمولوجية ، بحيـــث يهدف باشلار الى ان يفســـر بهذين المفهوميـــن مظاهر التعطل والتوقف والنكوص فى تاريـــخ العلـــم من جهة ، ومظاهر الثـــورة من جهة اخرى • نحن نعتـــرف اذن منذ البدايـــة باننا نريـــد أن نعتمـــد هذا التصـــور للتفكير به فى واقـــع علـــم

Digital © Al-Kalimah

الاجتماع ، الا ان علينا ومنذ البداية ايضا أن نسجل عدة ملاحظات .

1 — علينا قبل كل شيء ان نعترف بأن الامر لا يتعلق هنا بباشلار بصفة مباشرة لان باشلار لم يفكر فى تاريخ العلوم الانسانية . فالتاريخ العلمى الذى فكر فيه باشلار واستمد منه مفاهيمه هو تاريخ العلوم الرياضية والفيزيائية والكيميائية . من المرحلة ما قبل العلمية لهذه العلوم حيث كانت تعرف تعطلا وتوقفا فى بلوغ معرفة موضوعية استمد باشلار مفهوم العائق الابستمولوجى ، ومن النظر فى المرحلة المعاصرة فى تطور هذه العلوم حيث ظهرت مظاهر ثورة علمية استمد باشلار مفهوم القطيعة الابستمولوجية الا ان علينا ان نعترف الى جانب هذا كله بأنه ان لم يكن الامر يتعلق بباشلار بصفة مباشرة ، فهو يتعلق به بصفة غير مباشرة . فان ما نريد البحث فيه هنا هو المحاولات التى قام بها البعض من اجل فهم واقع العلوم الانسانية بالاستعانة بمفاهيم ترجع الى التصور الباشلارى لتاريخ العلوم . وهناك بهذا الصدد محاولتان اساسيتان لوضوح علاقتهما بباشلار ، هما من جهة اولى المحاولة التى يقوم بها مؤلفو كتاب «مهنة عالم الاجتماع» (1) من اجل فهم الواقع الحالى لعلم الاجتماع مطبقين التصور الباشلارى فى فهم تاريخ هذا العلم ، ومن جهة ثانية المحاولة التى قام بها التوسير من أجل فهم نشأة المادية التاريخية مستعينا على ذلك بمفهوم بلاشلارى هو القطيعة الابستموولجية . ان البحث فى هذه المحاولات لا يقتصر فى نظرنا على بحث فى مدى نجاح اصحابها فى تطبيق المفاهيم الباشلارية او فى مدى تجديدهم فيها اثناء هذا التطبيق ، بل انه امتحان لمدى

Digital © Al-Kalimah

اجرائيـــة المفاهيم البلاشلارية ذاتها وبحث فى مدى قدرتها على ان تعبر عن واقـــع علوم اخرى غير التى فكر فيها باشلار ٠

2 ــ سنبحث فى هذا المقال فى المحاولة التى قام بها مؤلفو كتاب «مهنة عالم الاجتماع» ، الا ان علينـــا ان نلاحــــظ ان النجاح لن يكون من نصيـــب كل المحاولات التى تحـــاول تطبيق مفاهيم باشلارية ٠ ان النجاح يتحقق فى نظرنا بقدر ما يكـــون هنالك موقف نقـــدى من التصـــور الباشلارى ٠ فان هـــــذا الموقف وحده يكـــون قادرا على ان يتبين حدود المفاهيم التـــى يطبقها بتعيين الحدود التى نشأت عن التفكير فيها تلك المفاهيم، وبتعيين الحدود الفلسفية للفلسفة التى أنتجتها ٠ وكل تطبيـــق لا يقـــوم بهذا النقـــد الضرورى لن يصادف النجاح الكامـــل، فهو سيكون تطبيقـــا ميكانيكيـــا من جهة أولى ، كما سيعرض نفسه من جهة ثانيـــة لذات الانتقادات التى يمكن ان توجـــه الى فلسفـــة باشلار ٠ من هذا المنظور يمكن ان نقـــدر المحاولة التى قام بها مؤلفـــو «مهنة عالم الاجتماع» ، فنقول بانهـــــا محاولة انطلقت من تبنى الموقـــف الباشلارى دون نقد له ، بـــل واكثـــر من ذلك يمكننـــا أن نقول بـــانها لـــم تتبـــن التصـــور الباشلارى لتاريخ العلوم فحسب ، بل تبنت مع ذلك الموقـــف الفلسفى العقلانى المطبق الذى يريد له باشلار ان يكون الموقف الفلسفى المعبر عن المرحلة الحاليـــة من تاريخ العلـــــوم ٠ وهذا التطبيـــق حين اتخذ هذه الصورة سيجعل نفسه ، كمـــا سنرى عند عرض تفاصيله ، اسيرا للفلسفة الباشلارية٠ وعلى العكس من ذلك فان تطبيقـــا كالذى يقوم به ألتوسير يعـــى فى مرحلة نقـــده الذاتى بصفة خاصة بضـــرورة نقد التصـــور الباشلارى فيصل بذلك الى صورة فعالة للتعامل مع مفاهيم هذا الفيلسوف ٠ ملاحظتنا اذن هى ان علينـــا ان ننتبه اثنـــــاء

Digital © Al-Kalimah

التطبيق الى أن الفعالية الظاهرة للمفاهيم الباشلارية لا ينبغى ان تدفع بنا الى ان نغض الطرف عن حدود هذه المفاهيم. ان حدود فلسفة باشلار تظهر فى نظرنا فى كونها تنظر الى العوائق والقطيعات الابستمولوجية نظرة تأملية ، فلا ترى مصدرها الا فى التطور الذاتى للمعرفة العلمية . فعن هذا التطور وحده ينتج جدل العوائق والقطيعات ، بحيث ان المعرفة العلمية هى التى تنتج بذاتها وبفعل تطورها الذاتى عوائقها ، كما أنها هى التى تتجاوز بفعل ذلك التطور نفسه تلك العوائق وتحقق القطيعات الابستمولوجية . ولم تكن فلسفة باشلار تبحث عن عوائق وقطيعات المعرفة العلمية فى علاقة هذه بشروطها التاريخية . فقد ظل باشلار يخلط بين القيمة النظرية لهذه المعرفة . وكان عند انتقاده للفلاسفة الماديين يعتقد بأنهم يرجعون هذه القيمة وبصفة مطلقة الى تلك الشروط المادية ، الامر الذى يجعلهم يغفلون القيمة الثقافية والنظرية للفكر العلمى الجديد (2). غير أنه ينبغى فى نظرنا المضى فى الطريق المعاكس لهذا التحليل الباشلارى ، خاصة اذا كان الامر يتعلق بالعلوم الانسانية التى يبدو ان الارتباط بينها وبين شروطها التاريخية اقوى واوضح . ان العلوم الانسانية لا زالت ، بالرغم من كل مظاهر التقدم المنهجى الظاهرة عليها ، تخضع لسلطة الايديولوجيا . والايديولوجيا بالنسبة لهذه العلوم هى الوسيط المعرفى بينها وبين شروطها التاريخية . وذلك يكون من الضرورى البحث فى علاقة العلوم الانسانية بالايديولوجيا لان هذه العلاقة مصدر لصور من العائق الابستمولوجى لم يستطع التحليل الباشلارى بلوغها، ولا يستطيع ذلك كل تطبيق يلتزم ذلك التحليل .

Digital © Al-Kalimah

3 — ملاحظتنا الثالثة هى أن قبول الجدل الباشلارى لتاريخ العلوم والاستعانة به فى التحليل لا ينبغى ان يرتبط بقبول هذا الجدل بنظرة مجردة الى العلاقة بين طرفيه . ذلك لانه فى كل لحظة من تاريخ اى علم يوجد جدل بين العوائق والقطيعات ، ولكن ضمن هذا الجدل توجد أولوية لطرف من طرفى هذا الجدل . وينبغى اذن أن نتساءل ونحن نقوم بتحليل علم معين كعلم الاجتماع : لاى طرفى الجدل تكون الاولوية فى هذه المرحلة من تاريخ المعرفة العلمية فى هذا الميدان ؟ اننا لا نشك فى أن الجواب لن يكون واحدا فيما يتعلق بالعلوم الرياضية والفيزيائية من جهة وفيما يتعلق بالعلوم الانسانية من جهة اخرى . فهذه العلوم وتلك ليست على نفس الدرجة من حيث عقلنة ظواهرها وتنظيم ملاحظاتها وتجاربها . واذا كانت العلوم الفيزيائية تعرف الآن من تاريخها فترة تحقيق القطيعة مع المعرفة العامة بل ومع الفكر العلمى السابق بها ، فان العلوم الانسانية تعرف امتدادا لفترة العوائق حيث لا زال يهيمن التداخل بين المعرفة العامة والمعرفة العلمية . ويبدو لنا ان باشلار يعى الفرق بين مستوى العقلانية الذى يعبر عنه مفهوم القطيعة وذلك الآخر الذى يعبر عنه مفهوم العائق . ذلك لانه وان كان يتحدث عن جدل للمفهومين فى تاريخ العلوم ، فانه يعبر بمفهوم العائق عن المرحلة الما قبل علمية من تاريخ العلوم الرياضية والفيزيائية ، بينما سيخدم مفهوم القطيعة لكى يعبر به عن مرحلة الثورة العلمية التى عرفتها هذه العلوم انطلاقا من نهاية القرن التاسع عشر . وان هذا التمييز يصبح ضروريا عند ما يكون الامر متعلقا بمجموعتين من العلوم لا تعرفان نفس الدرجة من العقلانية ، ولا تعيشان فى نفس الفترة التاريخية وهما العلوم الفيزيائية والعلوم الانسانية .

Digital © Al-Kalimah

تلك اذن الملاحظات الاساسية التى نرى انها ضرورية من اجل تقويم كل محاولة تقوم لفهم واقع العلوم الانسانية انطلاقا من فهم باشلارى . وهى لا تمكننا من تقويم ما سبق من محاولات فى هذا الاتجاه فحسب ، بل تمكننا من تبين الطريق الذى ينبغى ان تسير فيه كل محاولة ممكنة . فى ضوء هذه الملاحظات يمكن ان نحكم على المحاولة التى قام بها مؤلفو كتاب «مهنة عالم الاجتماع» . اننا نرى انهم قد التزموا التحليل الباشلارى دون القيام بأى نقد ضرورى لهذا التحليل. وقد كان للالتزام الذى اتخذ هذه الصورة اثره على نتائج التحليل الذى قام به المؤلفون . فباشلار يمدنا بمفاهيم لانشك فى انها فعالة فى فهم التاريخ العلمى ، ومن هذه الناحية فان استخدامها فى فهم واقع علم الاجتماع المعاصر لا بد وأن يؤدى الى تقدم فى فهم ذلك الواقع . ولكن هذا التطبيق الذى اتخذ صورة ميكانيكية يبقى ذاته اسيرا لنقص التحليل الباشلارى ويعرض ذاته لنفس الانتقادات التى يمكن ان يعترض بها على باشلار .

1 — نتساءل اولا : ما هى العوائق الابستمولوجية التى تعوق المعرفة الاجتماعية عن ان تكون علما ؟ كما كان الامر بالنسبة لباشلار فان المؤلفين يرون العوائق فى كل ما يبقى الفكر سجينا لتصورات المعرفة العامة ويمنعه بالتالى من بلوغ معرفة موضوعية بالظواهر التى يدرسها . التداخل بين المعرفة العلمية والمعرفة العامة هو اذن المصدر الاول للعوائق الابستمولوجية . يقول المؤلفون بهذا الصدد : «اذا كان علم الاجتماع علما كبقية العلوم الاخرى يلاقى صعوبة خاصة فقط فى ان يكون علما كتلك العلوم الاخرى ، فان

Digital © Al-Kalimah

ذلك يرجع اساسا الى العلاقة الخاصة التى تقوم فيه بين التجربة العالمة Savante والتجربة السانجة للعالم المجتمعى ، والى العلاقة الخاصة كذلك بين التعبيرات السانجة والتعبيرات العالمة عن هذه التجارب» (3).

ان المصدر الاول للعوائق اذن هو التداخل بين المعرفة العامة والمعرفة العامية . ويمكننا ان نستنتج من الفقرة السابقة صورتين للعائق الابستمولوجى الذى ينشأ عن هذا التداخل . تبرز الصورة الاولى على مستوى الصلة بالوقائع، وتبرز الصورة الثانية على مستوى التعبير عن نتائج الدراسة.

يمكن ان نقول بصدد العائق الاول بأن التداخل يأتى نتيجة للالفة التى تنشأ لدى عالم الاجتماع بالمحيط المجتمعى . وتكون هذه الالفة عائقا ابستمولوجيا بالمعنى التام للعبارة . ذلك لانها تجعل عالم الاجتماع ينقل الى الميدان العلمى جملة من التصورات العامة الوهمية الناتجة عن تأثره بالمفاهيم الشائعة فى المحيط المجتمعى . ففى علم الاجتماع اكثر من اى ميدان آخر لا يتحقق الفصل بين الرأى العام L'opinion Commune وبين الخطاب العلمى ، فى حين انه لايمكن فى نظر المؤلفين تحقيق القطيعة الابستمولوجية التى تنقل علم الاجتماع الى الاتصف بالصفة العلمية الا بتحقيق ذلك الفصل.

والصورة التى يتحدث عنها المؤلفون هنا للعائق الابستمولوجى هى ذاتها التى يتحدث عنها باشلار عندما يعارض بين العلم والرأى . يرى باشلار بهذا الصدد ان العلم يعارض الرأى بصفة مطلقة ، وأنه ان حدث فى قضية معينة ان اعترف العلم بمشروعية للرأى فان ذلك يكون لاسباب أخرى غير التى تأسس عليها الرأى . فالرأى خاطىء دائما لانه يفكر بصورة سيئة ، بل ولا يفكر ابدا . انه يترجم الحاجات الى

Digital © Al-Kalimah

معارف . وهو اذ ينظـر الى الموضوع من زاويـة المنفعـة يمنع نفسه من معرفته . ولذلك كان الرأى اول عائـق ابستمولوجى ينبغى تجاوزه فى نظر باشلار (4) .

ولكن كيف نفرض مثل هذه المفاهيم العامة او الشائعـة ذاتها على عالم الاجتماع ؟ لقد سبق لنا ان اشرنا الى عامـل الالفـة . ويمكننا ان نشير الان الى ان ما يجعل تلـك المفاهيم تظهر بمظهر القوة والوضوح هو الوظيفة المجتمعية التى يمكن أن تكـون لها . وللقضاء على الراى ، ولتجاوز شـروط الالفة والوظيفة المجتمعية التى تجعله يتسلل الى المعرفـة العلميـه ، لابد من تجاوز الصله الاولى بموضوع المعرفـة العلميـة ، او بتعبير باشلار لابد من تجاوز التجربة الاولـى بمقلنتها . فهذا هو السبيل الذى سيوصلنا الى مهم اكثر تجريدا للواقع . اما ان يهيمن علينا الراى الشائع العام اثنـاء البحث، فهذا معنـاه اننا لم نتوصل بعد الى وضـع المشكلة المدروسة فى صيغـه علميـه . فالوضع العلمى لمشكلة ما لا يكـون بالبقـاء فى المعرفه العامة بل بالخروج من حدودهـا ، لان المعرفة العلميـه تتاسس كما بين باشلار ذلك ، لا كاستمرار للمعرفة العامة بل ضد هذه المعرفة . هذه اذن هى الصـورة الاولى للعائق الابستمولوجى : تداخل بين المعرفة العامـة والمعرفة العلميـة يؤدى بفعل الالفة بالمحيط المجتمعى ومفاهيمه، وبفعل التأثـر بالوظيفـة المجتمعية لتلك المفاهيم الى تسربها الى التحليـل العلمـى .

أما بصدد العائق الابستمولوجى الثانى فيمكن القـول انه يوجد على مستوى التعبير عن النتائج التى يتم بلوغها . ففـى علم الاجتماع ، كما هو الامر فى اى علم آخر ، لا يقف حـد الدراسة العلمية عند فهم الظواهر فحسب ، بل يتجاوز ذلـك

Digital © Al-Kalimah

الى صياغة النتائج صياغة دقيقة ، فالتداخل بين المعرفة العامة والمعرفة العلمية يعوق مرة أخرى قيام مثل هذه الصياغة الدقيقة . فكما ان هنالك على مستوى الفهم تداخلا بين المفاهيم العلمية والمفاهيم العامة ، فان هنالك تداخلا يرتبط به بين اللغة العلمية واللغة العامة . يكون على عالم الاجتماع لذلك ان يكون على يقظة ابستمولوجية مستمرة ، والا يجعل يقظته تنقطع عند نقده لمفاهيم علم الاجتماع التلقائي ظنا منه انه يكون بذلك قد تخلص بصورة نهائية من كل عائق ابستمولوجي يرجع الى المعرفة العامة . ذلك لان المفاهيم التي تنتجها المعرفة الاجتماعية التلقائية قد تتسرب الى عالم الاجتماع عن طريق اللغة حين يستخدم العالم مفردات اللغة العامة للتعبير بها كمصطلحات علمية . ان القطيعة الابستمولوجية بين المعرفة الاجتماعية التلقائية والمعرفة الاجتماعية العلمية لن تتحقق الا بقدر ابتعاد لغة علم الاجتماع عن اللغة العامة ، والا بقدر صياغة العالم لمفاهيم علمية دقيقة يعبر بها عن النتائج التي توصل اليها ويصوغ بها فرضياته الجديدة .

نتساءل مرة اخرى : كيف تنفذ اللغة العامة الى تعبير العالم ؟ العامل الاساسي هنا ايضا هو الالفة التي تنشا بين العالم والمحيط المجتمعي الذي يكون موضوع دراسته . فالالفة تجعل التعبيرات العامة تنفذ الى تعبير العالم دون وعي منه ، فتكون بذلك اكثر خطورة على العمل العلمي لانها تكون الطريق التي تعاود المفاهيم الشائعة النفاذ بفضله الى فكر العالم . ذلك لان اللغة العامة تنقل الى فكر العالم تقطيعات المعرفة العامة للواقع . وهكذا مثلا قد تدل كلمة «اللعب» في اللغة العامة على اشياء مختلفة تفصل بينها الدراسة العلمية.

Digital © Al-Kalimah

بهذه الطريقة تنفذ اللغة العامة الى اللغة العلميـــــة وتعوق عالم الاجتماع عن صياغة فروضه ونتائجه صياغة دقيقة وعلميـــة . وهذا العائق الابستمولوجى كما رأينا مرتبط بالعائق الاول ومكمـــل لـــه .

2 ــ حين نتساءل الآن عن الكيفية التى تتحقق بها القطيعة الابستمولوجية فى علم الاجتماع ، يكون علينا ان نلاحظ منـــذ البدايـــة ان المستوى الذى يتحدث به المؤلفون عن القطيعـــة يختلف عن ذلك الذى يتحدثون به عن العوائق . فالعوائـــق الابستمولوجية قائمة وفعلية ، اما القطيعة الابستمولوجية فأمر مامـــول . بتعبير آخر ، تعبر العوائق الابستمولوجية بالنسبـــة لعلم الاجتمـــاع المعاصر عن الواقع الذى ينبغى تجاوزه لانه يمثل المرحلة ما قبل العلميـــة للمعرفة الاجتماعية ، وتعبر القطيعـــة الابستمولوجية عن الواقع الذى ينبغى ان يتجه نحوه هـــذا التجاوز . ولكى ينتقل علم الاجتماع من مرحلة العوائـــق الى مرحلة القطيعة يقتـــرح المؤلفون عددا من التقنيـــات التى على عالم الاجتمـــاع تحقيقهـــا .

أول هذه التقنيات المقترحة هى القياس الاحصائـــى . فهذا القياس يبعد العالم عن الخضوع للملاحظة الناتجة عـــن الاتصال الاول المباشرة بالظاهرة ، كما يقيه التأثر بالمفاهيـــم العامة التى تنتج عن مثل هذا الاتصال الاول . ان القيـــاس الاحصائى يخضع ملاحظة الظاهرة للعقلنة من حيث انه يجعلها ملاحظة منظمة ، ويسير بذلك بالعالم فى الطريق المعاكس لنتائج الاتصال الاول ، ويحقق قطيعة بين ملاحظة الظاهرة عند العالم وتلـــك الملاحظة فى المعرفة الاجتماعية العامة ، ويمنع بذلك كل تداخل بين النتائج التى تلزم بين هاتين الملاحظتين .

Digital © Al-Kalimah

ثانية التقنيات التى يقترحها المؤلفون هى ما يدعونــه بالتعريف المؤقت . ويهدف هذا التعريف فى نظرهم الى ان يعوض العالم عن المفاهيم العامة بأول مفهوم علمى . فهناك فـرق ، فيما يرون ، بين ان نبدأ دراستنا ظاهرة مجتمعية ما ونحــن نملك عنها تعريفا مؤقتا يرشد بحثنا ، وبين ان نبدأ هـــذه الدراسة ونحن خلو من أى تعريف . فالتعريف يحدد بصــورة مضبوطة الظاهرة موضوع البحث ، ويعطى نقطة انطلاق لكــى يتم بصدد هذه الظاهرة تجاوز المعرفة العامة وبلوغ المعرفــة العلميــة .

وكما ان صور العائق الابستمولوجى التى ذكرها المؤلفون مستلهمة من التحليل الباشلارى ، فان التقنيات التى يقترحونها لتحقيق القطيعة يمكن ايضا ان تقارن ببعض جوانب ذلك التحليل. فباشلار ، اذ يحدثنا عن التجربة الاولى كعائق ابستمولوجى ، يرى ضرورة اخضاع هذه التجربة للعقلنة بكل الطرق النظريــة والتطبيقية اللازمة للعقلنة . والتقنيات المقترحة علينا هنا تهدف بدورها الى عقلنة ملاحظتنا للظاهرة المجتمعية .

غير ان هذه التقنيات التى ذكرناها حتى الآن لا تمكننــا الا من تجاوز العائق الابستمولوجى الناتج عن تداخل المعرفـــة الاجتماعيــة التلقائية والمعرفة الاجتماعية العلميــة . ويبقــى علينا ان نحدد المقترحات التى يقدمها المؤلفون بصدد الخطوات التى يكون علينا اتباعها لتجاوز العائق الابستمولوجى الثانــى المتعلق بالتداخل بين اللغتين العامة والعلميــة .

وما يقترحه علينا المؤلفون هنا هو ان نمــارس النقـــد بالمعنى الذى يقصده الوضعيون المناطقة : النقد المنطقـــى والقاموسى للغة المستعملة . فهذا النقد هو الكفيل فى نظرهــم

Digital © Al-Kalimah
بان يجعلنا نكون مفاهيم علمية ونظورها كمفاهيم علميـــة . وهناك فرق بين العالم الذى يمارس هذا النقــد ، وبين العالم الذى يعمل بدونــه . فالدراسات المنطقية لاستخدام الكلمــات كما يرى فنكنشتين Woittgenstein الذى يرجع اليه المؤلفون بصدد هذه القضية ، هى التى تقى العالم من تأثير التعبيــرات العامة ومن تاثير التى تنتج عن هذه التعبيــرات .

3 ــ ولكن هذه التقنيات التى ذكرناها لا تستطيع وحدها ان تحقق القطيعة الابستمولوجية ، فهى ليست كافية فى نظــر المؤلفين لاقصاء كل العوائق الابستمولوجية التى تضمها المعرفة الاجتماعية التلقائية امام المعرفة الاجتماعية العلمية .

ان الوسيلة الحقيقية التى يمكن ان تعمل على اقصـــاء تلك العوائق هى قيام نظرية حول ما هو مجتمعى . فغيــاب النظريــة قد يجعل العالم الاجتماعى يعتقد حين ممارستـــه للتقنيــات الاختبارية انه قد ابتعد عن مفاهيم المعرفة العامــة فى الوقت الذى لا يكون فيه بعيدا عن الوقوع فى شراكها . ان الميــزة الابستمولوجيــة للنظرية انها تقــدم لنا جملة مــــن المفاهيــم المتناسقة التى تقى العالم خطر الوقوع فى كل حين فى اسر المفاهيم العامة . وليس هذا الخطر بعيــدا عن علمـــاء الاجتماع الذين يرتمــون فى احضان الممارسة الإختباريـــة . فالعمل الذى يقوم به امثــال هؤلاء العلماء لا يمكن ان يقــود الى القيام بتجارب حاسمة تنذر بضرورة اعـــادة النظر فـــى مفاهيم اساسية ، كما كان الشان مثلا فى الفيزياء مع تجربـــة «ما يكلسون» و «مورلى» . ذلك لان مثل هذه التجارب لا يمكن ان تقوم الا حيث توجد نظريـــة تسمح بامكانها .

هناك اذن ضرورة لوجود نظرية . واذا ما حاولنـــا ان نقارن فى هذا الاتجاه بين علم الاجتماع وبين علم آخر كالفيزياء ،

Digital © Al-Kalimah

فاننا سنلاحظ وجود نظريات فى العلم الفيزيائـــى ، فى حين لا نجـد الا مجرد تقليد نظرى فى علم الاجتمــاع .

ضرورة قيام نظرية حول ما هو مجتمعى ضــــــرورة ابستمولوجية . ذلك لانه لا يمكن تصور قيمة وفعالية لخطوات المنهج التجريبى الا بوجود النظرية كاطار تجرى بهدى منه تلك الخطوات . فبفضل النظرية تتخذ الملاحظة والفروض والتجارب معانيها الحقيقية . فالنظرية هى التى تقدم للملاحظة الاطـار الذى يتحدد فيه الهدف منها والذى يتم فيه التمييز بين الملاحظة التلقائية والملاحظة العلمية المنظمة التى يقوم بها عالم متخصص. ويتخذ كذلك التجريب معناه العلمى بفضل النظرية من حيث ان النظرية تقدم جملة من المفاهيم المتماسكة التى تسمح للتجريب بألا يكون تجريبا متعلقا بفرض منعزل ، وتتيح له بأن يكـــون تجريبا متعلقا بالنظرية كلها كبنية . وكذلك يكون الامر بالنسبة لفرض العلمى الذى تحدد له النظرية المجال الخاص به. وان العلماء الذين يستهينون بهذا المبدأ ويريدون أن يكونوا علمـاء بخضوعهم الكامل للوقائع التى يظنون انها تستطيع ان تعطــى النظرية الخاصة بها ، يسقطون ضحية للواقع موضوع البحث فيأخذون بتأويلاته للواقع بدلا من ان يسيروا فى اتجاه البحث عن تفسير علمى . ان العالم الذى يتخذ هذا الموقف ينمحى فى هذه الحالة كعالم . ان العالم القادر على تحقيق القطيعـــة الابستمولوجية ، او الذى يمكن ان يقوم بالتجارب ويقـــدم الفروض التى تسير فى هذا الاتجاه ، ليس هو العالم الذى يتميز عمله بغياب النظرية بل بحضورها .

— 3 —

هذه المحاولة التى قام بها مؤلفو كتاب (مهنة عالم الاجتماع)

Digital © Al-Kalimah

من اجل فهم الواقع الحالى لعلم الاجتماع مستلهمين فيهـــا التحليل الباشلارى ونظرته الى تاريخ العلم ، تتراوح فى قيمتها بين طرفين . انها حين تتبنى التصور الباشلارى دون ان تمارس عليه النقد الضرورى تجعل نفسها اسيرة ذلك التصور ، ترث عنه مميزاته ولكن دون ان تتجاوز نقائصه .

1 ــ ففى هذه المحاولة تجاوز لكل تفاؤل مفرط بصـــدد وضعية علم الاجتماع او اى علم انسانى آخر . فأى ميــدان معرفى لا يصبح علما حالما نوجد حوله خطابا يتحدث عـــن علميته . ذلك لان العوائق الابستمولوجية التى تعوق قيـــام المعرفة الموضوعية لا ترتفع كلها دفعة واحدة او بصفة مطلقة. فالعوائق الابستمولوجية كما يبين لنا ذلك باشلار ضـــرورة وظيفية لسير المعرفة العلمية . وحين تتجاوز المعرفة العلميـــة عوائقها فى مرحلة معينة ، فانها توجد بذاتها ولذاتها عوائـــق جديدة ، لان لكل مستوى من مستويات تطور المعرفة العلميـــة العوائق التى تخصه . واكثر من ذلك فان المؤلفين يوضحـــون لنا ان العوائق الابستمولوجية التى يعرفها علم الاجتماع المعاصر ليست تلك التى تعـــوق المعرفة الاجتماعية عن بلوغ مرحلـــة اشمل من الموضوعية ، بل هى تلك التى تعوق قيام المعرفـــة الموضوعية ذاتها ، وذلك من حيث ان مصدرها هو تداخل على مستوى كما على مستوى اللغة مع المعرفة العامة .

وبالاضافة الى ما نجده فى هذه المحاولة من قول بتداخل المعرفة العلمية بالمعرفة العامة ، يمكننا ان نضيف قولنا بـــأن هنالك فى المعرفة الاجتماعية الحالية تداخلا يبدو قويا فى بعض الاحيان بين الخطاب العلمى والخطاب السياسى . فقد يتداخل احيانا الخطاب العلمى الذى يهدف الى تحليل موضوعى للواقع المجتمعى ، بالخطاب السياسى الذى يهدف ضمن شروط آنيـــة

Digital © Al-Kalimah

اى استمالة الجمهور لصالح قضايا معينة . فحين لا يتم بكامل الوضوح التمييز بين هذين المستويين من الخطاب ، وحين لا تحصل معرفة بالصورة الموضوعية التى يمكن ان تكون عليها العلاقة بينهما ، ينزلق الخطاب الاجتماعى الى الوقوع فى شراك الخطاب السياسى فيستجيب لاهدافه الظرفية الآنية ويخلق لديه ذلك عوائق تعوقه عن بلوغ المعرفة الموضوعية وهو هدفه الخاص .

ان التحليل الذى يقوم به مؤلفو «مهنة عالم الاجتماع» يبين لنا ان المعرفة العلمية فى هذا العلم تعرف عوائق معرفية ، وهو يوضح لنا ان هذه العوائق تقع على مستوى التداخل بين المعرفة العامة والمعرفة العلمية . وبهذا فان القطيعة الابستمولوجية التى يقترح المؤلفون بعض التقنيات لتحقيقها ليست فى مستوى القطيعة الابستمولوجية التى عرفتها العلوم الفيزيائية المعاصرة . فالقطيعة فى العلوم الفيزيائية قطيعة ضمن معرفة علمية قائمة لنقلها من مستوى من تفسير الظواهر الى مستوى اشمل ينفى المستوى الاول بنفى جدلى يبين حدوده ويحتويه فى الوقت ذاته . واما فى علم الاجتماع فان الامر لم يصل بعد الى هذه المرحلة ، لان القطيعة المراد تحقيقها بفضل ما يقترحه المؤلفون من تقنيات معرفية قطيعة تفصل المعرفة العلمية عن المعرفة العامة ، اى قطيعة تريد قبل كل شىء بناء المعرفة العلمية كمعرفة متميزة .

2 ــ المحاولة التى قام بها مؤلفو «مهنة عالم الاجتماع» محاولة القيام بتحليل نفسى للمعرفة العلمية فى علم الاجتماع. ويتجه هذا التحليل النفسى الى الملاحظ العلمى كما يريد ذلك باشلار ليبحث عن المكبوتات العقلية التى تلعب دور العائق الابستمولوجى . والمكبوت العقلى هنا هو المفاهيم العامة

Digital © Al-Kalimah

الشائعة واللغة المعتادة . ولكن المكبوت العقلى فى ديناميته لا يحاول ان يظهر من حيث هو كذلك ، بل انه يتخذ لبلوغ هدفه طريق التداخل مع المعرفة العلمية واللغة العلمية . فمن خلال هذا النفاذ تستطيع المعرفة العامة واللغة العامة أن تظهر بمظهر العلمية وأن تعوقا بلوغ النتائج الموضوعية والصياغة الدقيقة لهذه النتائج .

ان قيمة التحليل الذى قام به مؤلفو «مهنة عالم الاجتماع» تتجلى فى كونهم قد عملوا على ابراز المكبوت العقلى فى عمل عالم الاجتماع ، وفى كونهم قد حاولوا ان يبينوا لنا الوسائل التى تمكننا من ان نحد من دينامية هذا المكبوت العقلى حتى لا يعوق معرفة الظواهر المجتمعية معرفة موضوعية .

ولكن ، وكما قلنا ذلك سابقا ، فان المحاولة التى قام بها المؤلفون تاخذ بالتحليل الباشلارى دون نقده ، فينتج عن ذلك انها تستطيع أن تستفيد من فعالية المفاهيم التى يمدنا بها ذلك التحليل دون ادراك نقائصها .

وفى نظرنا فان العوائق الابستمولوجية لعلم الاجتماع المعاصر لا تاتى فقط من مصدر علاقة هذا العلم بالمعرفة العامة لموضوع بحثه ، بل تاتى ايضا من علاقة المعرفة الاجتماعية بميادين معرفية اخرى كالفلسفة او بالايديولوجيا من حيث هى وسيط معرفى بين الحياة العامة والنظرية العلمية فى ميدان العلوم الانسانية . وقد كان بامكان المؤلفين وهم يقومون بتحليل علم يختلف فى وضعيته عن العلوم الفيزيائية التى اهتم بها باشلار ، ان يتنبهوا الى ما يمكن استفادته من الوضعية الخاصة لهذا العلم لاغناء مفهوم العائق الابستمولوجى الذى استعاره من باشلار وللقيام بتحليل أشمل .

Digital © Al-Kalimah

3 ـ هنـــاك تجاوز للنزعة الاختبـــارية فى فهمها لواقع علم الاجتماع خاصة والعلوم الانسانية عامة . والنزعة الاختبارية ذاتها نزعة متفائلة فى تحليلها لواقع العلوم الانسانية . فهـــى تعتقـــد انه يمكن ان نحكم بانتقال المعرفة الانسانية فى اى ميدان من ميادين الدراسات الانسانية الى مستوى العلم ، بمجرد ان يتوفر لهذه المعرفة القيام ببعض الملاحظات المنظمة كالتى يضمنها القياس الاحصائى او القيام ببعض التجارب او تحقيق بعـــض الخطوات او التقنيات التجريبية الاخرى . ولكن موقف مؤلفـــى «مهنة عالم الاجتماع» يكون جازما هنا فى التاكيد بان هذه التقنيات التجريبية مهما تكن قيمتها وفعاليتها فى تجاوز بعض الموائـــق الإبستمولوجية ليست كافية لتحقيق القطيعة الابستمولوجيـــة المامولة بين المعرفـــة العامة والمعرفة العلمية . يؤكد المؤلفـــون موقفهم المعارض لكل نزعة اختبارية متفائلة عند ما يؤكدون ان قيام نظرية حول ما هو مجتمعى ضرورة ابستمولوجية.

ومع اعتقادنا ، مثل المؤلفين ، بالضرورة الابستمولوجية للنظرية ، ومع مشاركتنا لهم الاعتقاد بان النظرية هى الكفيلـــة بان تجعل كل الخطوات التجريبية تتخذ معناها الحقيقى وتلعـــب دورها الطبيعى ، فاننا نرى ان تحليل وضعية النظريـــــة وتحليل دورها فى العلـــوم الانسانيـــة لم يكن كافيـــا .

فيما يتعلق بوضعية النظرية فى علـــم الاجتمـــاع خاصة والعلوم الانسانية عامة تم الاكتفاء بالتاكيد على ان ما يوجـــد بعلم الاجتماع هو مجرد تقليد نظرى فى حين ان ما تعرفه العلوم الفيزيائية هو قيام نظرية . والواقع هو ان هذا الامر يتم هنـــا تاكيده فقط دون التدقيق فى توضيحه ودون البحث عن أسبابه.

يعنى التقليد النظرى وجود نظريات مختلفة . فلاشك ان من يمكن ان نعتبرهم مؤسسى علم الاجتماع قد أمدونا بنظريات

Digital © Al-Kalimah

حول ما هو مجتمعى ، ولكنها نظريات متعددة ومختلفة لا نظرية واحدة يمكن ان تسمح بقيام الملاحظات والتجارب ضمنها ، ولا نظرية يمكن ان تتحد ضمنها النتائج التى يتم بلوغها . وقد كان يلزم ايضا البحث عن سبب وجود هذا التقليد النظرى بدلا من قيام نظرية اجتماعية . وان هذا دلالة فى نظريا على ان علم الاجتماع خاصة والعلوم الانسانية عامة لا زالت خاضعة التاثير المباشر للايديولوجيا ، وان مسألة بناء نظرية حول ما هو مجتمعى ليست موضع بحث علمى فحسب ، بل هى ايضا موضع صراع ايديولوجى .

أما فيما يتعلق بدور النظرية فى علم الاجتماع ، فاننا يمكن ان نماثله بالدور الذى يقول به باشلار للعلوم الرياضيـة . فالنظرية عند مؤلفى «مهنة عالم الاجتماع» هى ما يضفى اقصى ما يمكن من العقلانية والموضوعية والدقة على العمل العلمى . كما ان النظرية هى ما يسمح للمعرفة الاجتماعية بتحقيق القطيعة الابستمولوجية التى ستفصل بينها وبين المعرفة العامة .

ولا نشك مثل المؤلفين فى ان النظرية ضرورية وان اهميتها الابستمولوجية قصوى . غير اننا نراهم يقتصرون على ذكر هذه الاهمية وعلى النظر الى النظرية على انها وسيلة فعالة لدفع كل الخطوات العلمية الاخرى الى السير نحو تحقيق القطيعة الابستمولوجية مع المعرفة الاجتماعية التلقائية للظواهر المجتمعية . والواقع هو ان النظرية يمكن ان تلعب ايضا دور العائق الابستمولوجى ، وذلك حين تضع مجموعة من المفاهيم المتماسكة والمنغلقة ، وحينما يتجه سعى العالم دائما الى ان يحافظ فى عمله وهو يعمل بهدى من النظرية على تحقيق تماسكها اكثر مما يسعى الى امتحان فعاليتها . ان النظرية التى يمكن ان تلعب دورا فعالا فى العلوم الانسانية ليست كل نظرية ، وانما

Digital © Al-Kalimah

هى النظرية التى تكون مجموعة من المفاهيم الاجرائية التـــى اذ تمكن العالم من ان يفتح حوارا ايجابيا ومنظما مع الوقائع تقبل هى ذاتها نتائـــج هذا الحوار مع الواقع . ذلك ان النظريـــة لا زالت تلعب فى علوم انسانية كعلوم الاجتماع والاقتصـــــاد والتاريخ دورا ايديولوجيا ودورا معرفيا . وحين نعطى الاولوية فى العمل العلمى للدور الايديولوجى للنظرية على حساب دورها المعرفية ، فانها قد تكون حينئذ عائقا ابستمولوجيا ، بدل ان تكون تلك الوسيلة الفعالة لتحقيق القطيعة الابستمولوجية المأمولة .

4 ـــ واذا كان مؤلفو «مهنة عالم الاجتماع» يقفون عنــد حدود التحديد الباشلارى فيقفون عند حدود فعاليتـــه ، ولا يتجاوزون ذلك الى فعالية التحليل الذى يمكن ان يقوم علـــى نقده ، فذلك يرجع من جهة اخرى الى انهم لم يكتفوا بتبنـــى التصور الباشلارى لتاريخ العلوم المتمثل فى مفهوى العائـــق والقطيعة الابستمولوجيين بل تبنوا كل برنامج العمل الـــذى يتقدم به باشلار بما فى ذلك الموقف الفلسفى الذى يراه باشلار مطابقا للمرحلة الحالية من تطور العلوم الفيزيائية والذى يدعوه بالعقلانية المطبقة . انهم يتحدثون بصدد علم الاجتماع بـــدوره عن عقلانية مطبقة .

ويظهر هذا الالتزام بالموقف العقلانى المطبق عند باشلار فى مظهرين : اولهما القول بأن الموضوع العلمى الحقيقى هـــو الموضوع الذى يتم بناؤه وليس الموضوع المعطى ، وثانيهمـــا القول بان العمل العلمى ينطلق من النظرية الى التطبيق .

فيما يتعلق بالمظهر الاول فان المؤلفين يؤكدون الموقف الذى يفصل بفضله باشلار بين موضوع المعرفة العامة وموضـــوع المعرفة العلمية . فبصدد علم الاجتماع كما بصدد الفيزياء تبدو

Digital © Al-Kalimah

القطيعة الابستمولوجية بين المعرفتين العلمية والعامية فـــى موضوع المعرفة . فموضوع المعرفة العامة هو الموضـــــوع المعطى ، أما موضوع المعرفة العلمية فهو الموضوع الذى يتـــم بناؤه بفضل العلمى العقلانى والتقنى فى آن واحد . ولا يختلف علم الاجتماع فى هذا عن العلـــوم الفيزيائية . فموضوع البحث فى علم الاجتماع ليس هو المدرك المباشـــر الذى تمدنا بـــــه المعرفة الاجتماعية التلقائية ، وانما هو الموضوع الذى يعمـل عالم الاجتماع بفضل تقنيات متعددة على بنائه .

فكيف يتم بناء موضوع المعرفة فى علم الاجتماع ، علما بان بناءه فى العلوم الفيزيائية تقنى وعقلانى كما يؤكد باشلار ؟ ان بناء هذا الموضوع يتم عن طريق تدخل كل التقنيات التجريبية ، كما يتم عن طريق تدخل النظرية . فالقياس الاحصائى كوسيلة تقنية يجعل العالم يبنى موضوعه بصورة تختلف عما يمكن ان تصل اليه ملاحظة عامة تلقائية ، والتعريف المؤقت يجعل العالم يبدأ فى دراسة لهذا الموضوع لا كما يقدم له مباشرة بل كمـــا ينظر اليه العالم ذاته من خلال المعطيات المباشرة الاولـــى . والنظرية كما رأينا هى الاطار الذى يسمح بالتفكير فى موضوع المعرفة من خلال نسق من المفاهيم العلمية التى تـــم تكوينها مسبقا . ويشير المؤلفون الى وسيلة البناء العقلانية بصـــورة اخرى عندما يقولون ان هذه الوسيلة هى انطلاق عالم الاجتماع من اشكالية نظرية لدراسة موضوعه . ونقرأ لهم بهذا الصدد هذه الفقـــرة : «ان موضوع البحث مهما كان جزئيا او مجزءا لا يمكن ان يحدد او يبنى الا فى ضوء اشكالية نظرية تسمـــح باخضاع مظاهر الواقع لسؤال منظم ، بحيث تدخل تلك المظاهر فى علاقة بفضل السؤال المطروح عليها» (5) .

المظهر الثانى لالتزام المؤلفين بالعقلانية المطبقة الباشلارية

Digital © Al-Kalimah

هى تاكيدهم ان العمل العلمى فى علم الاجتماع ينطلق من النظرية الى التطبيق . يصف باشلار الفكرة العقلانية بكونها برنامجا للعمل يسعى الى التطبيق . وهذا ما يتم التاكيد عليه بصدد علم الاجتماع ايضا ، عندما يؤكد كتاب «مهنة عالم الاجتماع» بأن العمل العلمى فى علم الاجتماع يسير بمبادرة من العالم الذى يعطى الفكرة التى تضع برنامجا لهذا العمل . وأكثر من ذلك فانه يتم التاكيد على الموقف الباشلارى بصدد علاقة النظرية بالتجريب . ذلك لانه اذا كانت الممارسة الاختبارية تجعل نقطة الانطلاق من التجربة ، فان الانطلاق فى العمل فى علم الاجتماع ينطلق فى نظر المؤلفين من النظرية . هناك فى نظر باشلار قلب لتطور الموضوعية من التجربة الى الرياضيات ، ودور النظرية عند المؤلفين يقوم مقام دور الرياضيات فى علم الاجتماع . ونجد تأكيدا على هذه القضية بصيغة باشلارية : «تحقق العقلانية المطبقة قطيعة مع الابستمولوجيا التلقائية ، قبل كل شىء ، بفضل قلب العلاقة بين النظرية والتجربة . فحتى اكثر العمليات أولية كالملاحظة التى يصورها الموقف الوضعى كما لو كانت تسجيلا يتزايد قدر امانته بقدر التزامه بافتراضات نظرية مسبقة اقل ، تكون أكثر علمية بقدر ما تكون المبادىء النظرية التى تتسلح بها واعية ومنظمة» (6) .

يمكن ان نقول بان الالتزام بالموقف الباشلارى بهذه الصورة الكاملة كان من الاسباب التى ادت بمؤلفى كتاب «مهنة عالم الاجتماع» الى الوقوع فى نقائض ذلك الموقف . حقا ان العقلانية المطبقة الباشلارية يمكن ان تعتمد لنقد المواقف الوضعية والاختبارية ، ولكنها اذ تساعدنا على مثل هذا النقد لا تكون بذلك الموقف الكافى لالقاء الضوء بصورة موضوعية كاملة على العمل العلمى فى علم الاجتماع او فى العلوم الانسانية بصفة عامة .

Digital © Al-Kalimah

وهكذا وفى سبيل تجاوز الموقف الاختبارى يتم اعتماد الموقف الباشلارى القائل بقلب العلاقة بين النظرية والتجريب باعطاء الاولوية للنظرية التى ينطلق منها العمل العلمى فى علم الاجتماع كما هو فى العلوم الفيزيائية . ولكن تجاوز النزعة الاختبارية لا يتم بمجرد القول بعلاقة النظرية بالتجريب بصورة مقلوبة . فان قلب العلاقة بدلا من ان يفهم علاقة النظرية بالتجريب فهما جدليا لا يعمل سوى على استبدال اولوية باخرى : بدلا من الانطلاق من اولوية التجريب يتم هنا الانطلاق من اولوية النظرية .

ونفس هذا الامر نقوله عن فكرة بناء الموضوع . فما لاشك فيه ان الفرق بين المعرفة العامة والمعرفة العلمية يبدأ عند تحديد العالم لموضوع بحثه ، ومما لا شك فيه ايضا ان العالم لا يتلقى موضوع معرفته بصورة سلبية بل يساهم بما له من وسائل معرفية فى بناء هذا الموضوع ، ولكن النقد الذى يمكن ان يوجه الى مثل هذا القول هو ذاته الذى يمكن ان يوجه الى باشلار وهو ان الاعتقاد ببناء الموضوع لا ينبغى ان يؤدى بنا الى الاعتقاد بأن الموضوع يصبح مجرد نتيجة لوسائل وتقنيات معرفتنا .

وهكذا نرى انه اذا كانت المحاولة التى نجدها فى كتاب «مهنة عالم الاجتماع» قد مكنت من تجاوز بعض مظاهر التحليل التقليدى لواقع علم الاجتماع المعاصر ، واذا كانت قد مكنتنا من جهة أخرى من امتحان مدى فعالية المفاهيم الباشلارية فى تحليل واقع علوم اخرى غير التى استمدت منها ، فان الالتزام بالموقف الباشلارى فى كليته قد ادى الى الوقوف عند حدوده والاتصاف بعيوبه .

Digital © Al-Kalimah

الهـوامـــــش :

(1) Pierre Boudien, Jean Claude Ghan bederson et Jean Claude passeron : Le métier de sociologue éditions : Mouton Paris.

(2) Voir Micheel Vadée : Bachelard ou le nouvel idéolisme epistémologique, éditions sociales p. 237

(3) Le métier de sociologue. p. 36

(4) Voir Gaston Bachelard : La formation de l'esprit scientifique, Librairie J. Krin, Huitième édition (1972), p. 14.

(5) Le métier de sociologue. p. 14.

(6) ibid p. 83-84.

Digital © Al-Kalimah

Digital © Al-Kalimah

التصورات الوضعية لطبيعة

النظرية الفيزيائية

الاختبـــارية المنطقيـــة :

ســـالم يفـــوت

قبل الشروع فى عرض وجهة النظر الوضعية الجديدة ، يلزم التنبيه الى ان «النزعة الوضعية الجديـــدة» تتكون مـــن اعضاء غير موحدى وجهة النظر . فهى تحتضن اتجاهـــات فلسفية متباينـــة ، بل كثيرا ما تكون متضاربة بصدد بعـــض المسائل الفلسفية . لذا فاننى ساتحدث عامة عن «النزعـــة الاختبارية ــ المنطقية» باتجاهاتها الرئيسية الثلاثة : «النزعة الذرية المنطقية» التى عرفت انتشارا واسعا فى انجلترا تحت اسم «جماعة كمبردج» التى يتزعمها راسل ، ثم «النزعـــة الوضعية الجديدة» او «الوضعية المنطقية» التى هى امتـــداد «الحلقة فيينـــا» المنحدرة بدورها من «نزعة ماخ» ، ومـــن زعمائها «شليـــك» و «كرنب» و «ريشنبـــاخ» و «همبـــل» و «كرفـــط» . . . وقد اصبح لها اتبـــاع آخرون فى امريكـــا خصوصا بين الحربين الاخيرتين بعد ما هاجر جل اتباع حلقـــة

Digital © Al-Kalimah

فيينـــا الى الولايات المتحـــدة الامريكية واحتك فكرهم بـــآراء «شـــارل بيرس» (1839 ــ 1914) البرجماتية ، مما ادى إلى انصهار التيارين الوضعي والبرجماتي (وهو امر منطقي ومنتظر) واحتضان جماعة فيينا لبعض جوانب الفكر البرجماتي ، والمذهب البرجماتيين امثال «نيلسون غودمان» و «كوايـــن» بالوضعيـــة الجديدة . اما الاتجاه الثالث ، فهو الفلسفة المنطقية المعاصرة والمنتشـــرة على الخصوص في بولونيا تحت اسم «مدرســـة التحليل البولونية» بزعامة طارسكي ولوكتشفنيش ... كما يجدر التنبيه الى مسألة اساسية اخرى ، الا وهي ان من مميـــزات الاتجاه الوضعي الجديد ، حرص اصحابه على تطوير مفاهيمهم القاعدية . فهو اذن لا يمثل نسقا مكتمـــلا وتام الانجاز ، كما لا يمثل مذهبا مغلقا ذا اسس راسخة وثابتة ، بل يمثل بالاحرى تيارا تتواجد فيه عدة اتجاهات فلسفيـــة وابستملوجيـــة ، يجمعها حقل ايديلوجي واحد . لهذا فالتطور والمراجعة اللذيـــن تتعرض لهما المفاهيم الوضعية ليسا يؤديـــان الى الخروج عن الحدود التي يرسمها الحقل الايديولوجي الاختبري، كما لا يفضيان الى تغيير الافق والاشكالية ، بل يقومان فقط على اعادة نفس الاشكالية ، مع تنويع في الاعادة . فالنزعة الوضعية الجديدة، حتى بمحاولتها الاستفـــادة من العلم قصد تطويـــر مفاهيمها ، وحتى عندما تريد تصحيح أخطائها الا تفعل ذلك الا في اطـــار الحدود الضيقـــة والعلموية التي حبست نفسها داخلها ، اي من داخل نفس الاشكالية الاختبارية ومن نفس الحقل الايديلوجي الذي يفـــرض على كل العناصر المندرجة فيه ان تنطبع بميسمه وان تعطي اجوبة محددة سلفا بنوعية طرح السؤال (1).

وما هو مشترك بين الاتجاهات الوضعية رغم تباينها هو :

1 ــ الانشداد الى الخبرة الحسية ، ومن ثم ربط المعرفة

Digital © Al-Kalimah

بالادراك والدعوة الى التقيد بالظواهر ومعطيات الخبرة .

2 ــ كراهية ((التأمل الفلسفى)) من منظور علموى .

فى حديثى عن التصورات الوضعية لطبيعة النظرية الفيزيائية لدى الاختبارية ــ المنطقية واتجاهاتها سوف لن اعطى كبير قيمة لجزئيات وتفاصيل النزعات المكونة للوضعية الجديدة، ولا لنزاعات الداخلية التى كثيرا ما تثار داخل المعسكر الوضعى بصدد هذه المسالة او تلك ، كل ما سوف اعنى به هو العناصر الرئيسية المشتركة التى تلتقى حولها جميع الاتجاهات الوضعية والتى تلتقى معهم فيها ، والى حد ما ، وضعية اوغست كونت . وكما قد سبق ان اشرت الى ذلك: ان ما تشترك فيه جميع الاتجاهات الوضعية ، من تقيد بالظواهر ومطابقة الواقع الطبيعى بالواقع الحسى وكراهية الفلسفة كراهية علموية ، تشترك فيه معها كل الاتجاهات الاختبارية ، وهذا ما يعطينا حق وهم كل تيار ، تتوفر فيه تلك العناصر الاساسية المشتركة ، بالوضعية ، رغم ما قد يدعيه اصحابه من عدم انتماء لها او عدم التزام بمفاهيمها القاعدية ، لا سيما وانه ليس هناك طريق اوحد للوضعية ، بل لها طرق عديدة ومتباينة . وسبب ذلك هو ان الاتجاه المثالى فى الابستملوجيا عامة يتقمص صورا واشكالا لا يمكن الذهاب الى اعتبارها بمثابة مذاهب منفصلة قائمة بذاتها ، بل بالعكس تمثل استمرارا واتصالا لتشكيلة ايديولجية واحدة ، أى انها بمثابة انغام منوعة ومتغيرة لنفس اللحن ، واشكال تعبير مختلفة لنفس الفكرة ، يفضى بعضها الى الاخر ضرورة. لهذا يمكن تصنيف التيار المواضعاتى مع دوهيم وبوانكارى ولوروا داخل النزعة الوضعية واعتبارهم يمثلون فرعا وضعويا.

ترتبط النزعة الوضعية الجديدة مباشرة بماخ ، كما

Digital © Al-Kalimah

اشرنا الى ذلك ، وبالاصول الفلسفية التي استقى منها ماخ لاسيما هيوم وبركلى ، وقد نبهنا الى ان من الاسباب الفلسفية التى جعلت ماخ يرتد عن الكنطية ، فلسفة الموضة آنذاك ، الى الهيومية والمثالية اللامادية هو ما وجده فيها من معاداة للقبلوية ، ومن تركيز على ان طريقة الانسان الوحيدة فى المعرفة هى حواسه الخمس وان التجربة هى المنبع الوحيد لكل ما يمكن ان يحصل عليه الانسان من معارف ومعلومات عن الواقع . وهذا هو سبب تسمية النزعة الوضعية الجديدة بالاختبارية ، لانها استمرار لهيوم مرورا بماخ وللتقليد الاختبارى الانجليزى الذى يعتبر انه يستحيل على الانسان الاهتداء الى وصف الواقع انطلاقا من استنباطات واستنتاجات عقلية او افكار قبلية ، بل بتصور هذا الجزء او ذاك من الواقع والتمرس بظواهره عن طريق الحواس ، لان امور هذا الواقع يستحيل ان تدخل فى مجال ادراكنا عن طريق آخر غير طريق الحواس اذ الخبرة الحسية وحدها هى المصدر الذى نستقى منه العلم بالواقع وجميع افكارنا عن الواقع ترجع فى نهاية التحليل الى الخبرة الحسية . وفى هذا الصدد يقول رسل : ((نقول ان لنا معرفة مباشرة بشىء ما حينما ندركه ادراكا مباشرا دون وساطة اية عملية استنتاجية او اية معرفة بالحقائق ، فمتى كانت منضدتى حاضرة امامى فانى اكون على معرفة مباشرة بالحقائق الحسية التى تؤلف مظهر هذه المنضدة وهذه الحقائق الحسية هى لونها وشكلها وصلابتها ونعومتها ...)) (2). فالحقائق الحسية التى تؤلف مظهر المنضدة بالنسبة لى هى الامور التى اكون على معرفة مباشرة بها ، اى الامور التى اعرفها كما هى مباشرة ، فكل معرفة بالواقع تقوم على المعرفة المباشرة كاساس لها ، وجميع افكارنا نسخ مباشرة او غير مباشرة من الانطباعات

Digital © Al-Kalimah

الحسية . وفى نفس الاتجاه يذهب آيــر الى القول : ((ان وجهة النظــر الفلسفية التى تبنيناها ، يمكن فى اعتقادى ان نطلــق عليها اسم نزعــة اختبارية . وان ما يميــز الاختبارية هــو رفضها للميتافيزيقا ايمانا منها بان كل قضية واقعية تقوم علــى التجربة الحسية (3) والمعرفة الانسانية بكاملها ترد الى مصدر حسى ، وفى نفس المكان يبدى آيــر اعجابه بهيوم باعتباره كان سباقا فى هذا الميــدان الا انه يلفت الانتباه الى ان اختباريتــه ليست اختبارية نفسية تبحث فى الاساس النفسى لنشأة بعــض الافكار (فكــرة العليــة مثلا) ، بل هى اختبارية منطقية تحلل المعرفــة لا تحليلا نفسيا ، بل تحليلا منطقيا (4) بالبحث فــى القضايا والعناصر البسيطة التى تحاول رد المعرفة اليهــا او الاستناد اليها فى بحثها ، ليست هى ((الانطباعات الحسيــــة)) الاولية ، بل هى القضايا الاولية ، التى هى نماذج او محاضــر للتجربة ، والتى لا يمكن تحليلها الى ما هو ابسط منها ، وكل واحدة من هذه القضايا الاولية لا تكون قضية الا اذا كــــان موضوعها خبرة حسية مباشــرة ، كانطباع لونى على العين او لمسة على سطح الجلــد ... ويتفق مع راى رسل وآيــر ، رائــد آخر من رواد الوضعية الجديدة وهو رودلف كرنب الذى يستهل كتابه : ((الاسس الفلسفية للفيزياء)) بالتأكيد على اننا لا نعرف الا ما يمثل امام حواسنا ولا نستطيع ان نعلم الا الحقائق الحسية ، وما المعرفــة العلمية ذاتها سوى امتداد طبيعــى لدائرة المعرفــة المباشــرة ((فالملاحظات التى نقوم بها فى حياتنا كل يــوم ، وحتى الملاحظات العلمية المنسقة اكثر ، تكشــف لنا عن وجود تكــرار واضطراد فى العالم الخارجى . فالليــل يعقبه النهــار دائما ، والفصول السنوية تتعاقب بنظام ، كما ان لمس النــار يترتب عنه احساس بالاحتراق ، والاجســام تسقط عندما يلقى بها .. والقوانين العلميــة ليست شيئا اكثر

Digital © Al-Kalimah

من انها عبارات (منطوقات) تصوغ باكبر دقة ممكنة انواع الاطـراد هذه» (5) .

لذا لا يمكننا الاقرار سوى بان الحقائق الحسية هي الاشياء الوحيدة التي يؤكد وجودها ادراكنا الحسي لها ، وانطلاقا منها نستخلص استدلالات واحكاما على الاشياء تتخطى مجال تجاربنا الخاصة ، لكنها محددة بها ، اذ لا يمكننا العثور في هذه الاحكام والاستدلالات المنسقة اكثر على اى مبرر لا واقعى نجيز به احكامنا على الواقع ، فتوقعاتنا وافتراضاتنا القائلة بان المستقبل سياتي على غرار ما شاهدناه في الماضي، لا يمكن ان تكون سوى توقعات وافتراضات لا تبرر الا تبريرا اختباريا ، اذهى جميعها منتزعة من الخبرة ، والمستقبل لم يات بعد حتى تمدنا الخبرة بشيء عنه ، لذا لا بد من الاقرار ايضا بان كل حكامنا على الواقع هى احكام تعتمد على استقرائنا للتجارب نستند فيها على مقدمات استقرائية ، وان تراكم هذه المقدمات الاستقرائية هو الذى يؤدى بنا الى ادراك الاطراد الموجود في حوادث الطبيعة والتعود على توقع ظهور الحادث كلما ظهرت الحوادث او الظروف التى يقترن ظهوره بها . ويترتب عن هذا القول بانه لا يوجد اى سبب (لاتجريبي) يحملنا على افتراض ان الاقتران بين الاشياء ضرورى ويقيني ، اذ ان الاقتران بينها منشؤه العادة والاعتقاد . «فكلما كثرت المرات التى يحدث فيها شيئان معا، ازداد رجحان حدوثهما معا في مرة اخرى . وكلما بلغت مرات حدوثهما معا حدا كافيا زاد رجحان حدوثهما معا في المرة الاخرى حتى يصل الى درجة اليقين تقريبا وهذا الاحتمال او الرجحان لا يصل الى درجة اليقين المطلق (...) ولذلك فالاحتمال او الرجحان هو كل ما ينبغى ان نسعى في طلبه (6) . لذا

Digital © Al-Kalimah

فقوانين العلوم الطبيعية واحكام الخبرة صادقة صدقا احتماليا لا صدقا يقينيا ، وفى هذا الصدد يذهب «بوبر» (7) الى ان العلم لا يمثل منظومة قضايا يقينية ، ولا يمثل نسقا بنى على اسس راسخة ويقينية ، لذا فهو ليس معرفة ، ولا يمكنه ادعاء بلوغ المعرفة او ان يكون بديلا لها كالاحتمال . ان العلم يعجز عن بلوغ يقين مطلق اللهم الا على مستوى تجاربنا الذاتية المتعلقة بالاقتناع ، او على مستوى الثقة الشخصية . والملاحظ ان دعاة الوضعية الجديدة يشتركون جميعا فى هذا القول بدون استثناء ، فهذا «آير» يذهب الى ان الاحكام الاختبارية والتعميمات الاستقرائية لا تتسم ابدا بالضرورة ، مثلما نبه الى ذلك هيوم ، مهما كانت قوة اعتقادنا فيها» (8) . وذاك كرنب يقول : «كان هيوم محقا فى نظرى .. لقد كان له الفضل الكبير فى نفت نظر الفلاسفة الذين جاءوا بعده الى نقائص تحليل السابقين عليه لمفهوم العلية» (9) .

فبيت القصيد فى علمنا بالواقع هو الادراك الحسى للواقعة التى بها تتحقق القضية التى نكون بصدد تحقيقها ، فان كانت هذه القضية تتحدث عن فرد جزئى معين محدد بنقطة من مكان ولحظة من زمن ، كان تحقيقها معتمداً على ادراكنا لهذا الفرد الجزئى الذى تحدثنا عنه القضية لكى نستيقن من صدقها برجوعنا الى الاصل الحسى الذى جاءت لتصفه ، اما ان كانت العبارة المراد تحقيقها لا تتحدث عن فرد بذاته ، كأن تكون عبارة كلية تتحدث عن فئة باسرها من الافراد اينما وجد هؤلاء الافراد مكانا وزمانا ، لم تكن تلك العبارة قضية بالمعنى المنطقى للكلمة ، لانها فى هذه الحالة لا تكون بذاتها ممكنة التحقيق الا بعد تحويلها الى قضايا جزئية فردية تتحدث كل منها عن كائن واحد ، فالعبارة اى القضية الكلية

Digital © Al-Kalimah

هى دالة قضية ، تتكون من قضايا جزئيـة عديدة ، وتفكيكها الى قضاياها الجزئية هو اول مرحلة من مراحل تحقيقها ثـم فيما بعد التيقن من صحة تلك القضايا الجزئية اعتمادا علـى الادراك . فالاعتماد على الحس هو وسيلة التحقيق اما بطريق مباشـر اذا كانت القضية فرديـة ، او بطريق غير مباشر اذا كانت كلية وذلك بتحويلها الى قضاياها الجزئية (10) .

وانكار الوضعيين الجدد صفة ((القضية المنطقية)) عـن القضايا الكلية ، ووصمهم لها بانها دالة قضية ، نابع مـن انكارهم صفة اليقين عن المعرفة الاختبارية التى تتجلى فى صورة قوانين شمولية وقضايا كليـة لا سيما وانهم يؤكدون على ان ((القانون)) لا يقـع فى خبراتنا الحسية ذاتها اذ لا نشاهد سوى الحالات الجزئية ، وبالتالى لا يوجد اى مبرر نعتمد فيه علـى تجاوز الخبـرة وحالاتها الجزئية وما نـراه الى ما لسنا نراه. ويلخص كرنب وجهة النظر هذه عندما يقـول : ((باختصـار ، يبتدىء العلم بالملاحظة المباشـرة للوقائع المعزولة ، ولا شىء غيرها يمكن ملاحظته . اذ من المؤكـد ان الاطراد لا يمكـن ملاحظته مباشرة ، واننا لا نكتشفه الا بمقارنتنا لعدد كبير مـن الملاحظات . والاطرادات هى ما نصوغه فى عبارات نسميهـا ((قوانين)) (11) . فالقوانين توقعات ، غير انها توقعات محتملة فقط ، ولذلك فليس امامنا ان نبحث عن برهان يثبت انها يجب ان تحدث فى المستقبل بل عن سبب يؤيد القـول بانها محتملة الوقوع . ويذهب كرنب الى ان للقانون وظيفتان مرتبطتـان ومتكاملتان : التفسير والتنبؤ . بالتفسير نحاول دائما ان نرجع حادثا ما الى سببه حتى يكون تلاؤمنا مع الواقع اسهل وايسر. وبالتنبؤ نعتقد بوجود اقترانات ، وكل سلوكنا قائم على ذلك ، وهى اقترانـات كانت ناجحة فى الماضى ، ونعدها لذلك محتملة النجـاح فى المستقبـل .

Digital © Al-Kalimah

هكذا نرى ان الوضعية الجديدة ترتد الى «هيوم» عندما تعتبر الخبرة الحسية اساس المعرفة والمصدر الوحيد الذى نستقى منه العلم بالواقع . غير ان الوضعية تستمر فى نفس الاتجاه الذى بلوره هيوم (12) عندما ميز بين «قضايا الواقع» و «علاقات الفكر» مفرقا بذلك بين نوعين من القضايا والبحوث. فاذا كانت قضايا الواقع تستمد من الخبرة والادراك فان اليقين من صدقها يقتضى ردها الى اصلها الحسى الذى صيغت كقضية لتصفه اى ان تحقيق صحتها يتطلب ارجاعنا لها الى عالم الواقع الخارجى . لكن ما كل ما يقوله الانسان او يعبر عنه يتعلق بظواهر الواقع الخارجى ، او بعبارة افضل ليس كل قول ، بالضرورة ، قولا فى الظواهر الطبيعية ، بل هناك الوان اخرى من القول وانواع من القضايا يدور حديثها ، لا حول موضوع من الموضوعات الواقعية اى انها فى الاخير ليست لا قضايا جزئية يمكن التيقن من صحتها بارجاعها مباشرة الى موضوع بالذات تتحدث عنه ، ولا قضايا كلية يمكن تحويلها الى قضية جزئية قصد تحقيقها ، بل يدور حول افكار لا تتجاوز حدود العقل الى الواقع . كأن نحلل فكرة من الافكار فنقول : المثلث شكل هندسى فيه ثلاثة خطوط مستقيمة وثلاث زوايا . والامر فى مثل هذا النوع من القضايا لا يتطلب منا ان ننظر خارجها لنتيقن مما اذا كانت صادقة او غير صادقة ، اذ ان صدقها مرتبط بنيويا بها . فهى صادقة صدقا صوريا خصوصا واننا فى النطق بها كقضية لم نفعل سوى ان حللنا فكرة المثلث الى افكارها البسيطة اى استخرجنا منها المحمولات التى كانت توجد ضمنا وسلفا داخل الموضوع نفسه . اننا صرحنا فقط بمحمولات يقتضيها ويتضمنها الموضوع ، ومهما استمر استخراجنا للمحمولات وتصريحنا بها فاننا لا نتجاوز ان نكون قد قمنا بعملية استنباط وتحليل راعينا فيها اتفاق المحمولات

Digital © Al-Kalimah

والموضوع الذى يتضمنها ويقتضيها اتفاقا منطقيا . فالاتســاق المنطقى هنا هو معيار صحة وصدق هذا النــوع من القضايا التى تدعى تحليلية . ويقصد بالقضية التحليلية كل قضية يكون محمولها متضمنا فى موضوعها ، اذا فهى قضايا لا يضيف فيها الفكــر شيئا جديدا الى معلوماته ، انه يعيد فيها نفسه بصور مختلفــة ، فهى اذن لا تحصل سوى حاصلا . ومن هذا النــوع من القضايا قضايا المنطــق والرياضيــات .

ويمكن القول ان هذا التمييز بين ضربين من القضايا ، قضايا يقتضى التاكد من صحتها الرجوع الى الواقع ، واخرى لا يقتضى التاكد من صحتها اكثر من البحث عن الاتســـاق المنطقى الداخلى بين موضوعها ومحمولها ، يعتبر من بين الافكار القاعدية التى تقــوم عليها الوضعية الجديدة ، واذا كــان الوضعيون قد اهتدوا الى ذلك انطلاقا من تبنيهم للاختباريــة الهيومية ، فانهم طوروه ايضا بتاثير من اتجــاه فلسفى آخر معادى للاختبارية هو العقلانية الليبنتزية ، الذى رغم تنافــر منطلقاته القاعدية مع منطلقات الاختبارية ، يلتقى معها التقــاء لا اراديا فى التمييز بين ما اسماه ليبنتز «حقائــق العقــل» و «حقائق الواقــع» . حقائق العقل فى نظره ، حقائق ضرورية تقوم على استخدام العقل فى صورته المنطقية ، واساس ذلــك الاستخدام اعتبار الحقيقة ماثلــة فى مبدأ الذاتيــة فالشىء هو هو ، وما طرحنا للقضايا سوى نوع من اقرار الذاتية بصور متباينــة ، كأن نحلل الشىء الى صفاته وخواصه ونحلــل الموضوع الى محمولاته التى توجد ضمنا فيه . ومصدر يقيــن القضايا التحليلية يقينا ضروريا هو ان العقل فيها يعانى ذاتــه ويدرك بداهتــه ، بدون واسطة او توسط ، التى هى بداهة منطقية صورية . فحقائق العقل ازليــة وضرورية ، اى ان صدقها لم يحــدث فى لحظة زمنيــة معينــة ، فهو صدق مطلق

Digital © Al-Kalimah

غير مشــــروط ، صدق ازلى وسيبقى ابديا ، ومعنى الضرورة واليقين هنا هو انه يستحيل عليها احتمال ألا تكون صادقة . وهذا الضرب من الحقائق يستمد صدقه من مبدأ الذاتيـــة وعدم التناقض . اى اننا لو وصفنا بعدم الصدق لكنا كمن يطعن فى العقل نفسه او يناقـــض عقله . ولنعد الى المثال السابق : فى قولنا بان المثلـــث شكل هندسى ذو ثلاث اضــــلاع وثلاث زوايا ، نكون قد عبرنا عن قضية بديهية بذاتها صدقها مرتبـــط بالعقـــل نفسه ومبادئه (مبدأ الذاتية) اذ لا يمكن للمثلث الا ان يكون ثلاثى الاضلاع والزوايا ، والا وقعنا فى تناقض شنيـــع كأن نقول مثلا : المثلث شكل ذو اربعـــة اضلاع او شكل دائـــرى . فالقضايـــا المنطقية والرياضية تكـــون صادقـــة صدقا بديهيا بذاتها او تكون كذلك بغيرها فى حالة ما اذا كانت مستنبطة من قضايـــا اخرى واضحـــة بذاتها ، كأن نقـــول انطلاقا من تعريف المثلث بأن زواياه تساوى قائمتين . وفى هذا الصدد يقـــول ليبنتز : «ان مصـــدر الحقائق الضرورية هو العقل ، ومهما اكثرنا من الامثلة الجزئية التى نصادفها فى خبراتنا مما عساه ان يؤيـــد حقيقة كلية ما ، فلن يكـــون ذلك مرتكزا لنا يهيئنا لان نثق فى صدقها الى الابـــد لمجرد أننا استقرأنا عـــددا من الامثلـــة التى تؤيدهـــا ، بـــل لابد ان ندرك ما فيها من ضرورة الصدق عن طريق العقل (...) ان الحواس قد تستطيع ان توحى لنا بهذه الحقائق الكليـــة وان تؤيدها وان تؤكد صدقها ، الا انها لن تستطيع اقامـــة البرهان على استحالة تعرضها للخطأ وعلى يقينها الدائـــم (13) .

واذا كانت القضايا العقلية كذلك ، فان قضايا الواقع على العكس ، فى نظـــره ، صدقها عارض وليس ذاتيا ، فاذا قلنا ان المثلـــث رباعى الاضلاع لكان فى ذلك تناقضا عقليا وخرقا صريحا لمبدأ الذاتيـــة وعدم التناقض ، اما اذا اكدنا على ان المـــاء

Digital © Al-Kalimah

لا يتبخر فى درجة مئة فان التناقض هنا فى نظر ليبنتز ليس عقليا ولا يمـس احد المبادىء العقلية ، وليس فى عقلنا ما يحتم ان يتبخر الماء عند هذه الدرجة أو لا يتبخر . فحقائق الواقع اذن عارضة وليست يقينيـة ، ومصدرها هو الملاحظة التى تتبـع وتتعقب وتستقرىء الحالات الجزئية التى تحدث فى الخبـرات التجريبية ، فصدقها غير بديهى وغير عقلى بـل هو واقعـى حسـى وظنـى .

ولما كان النوع الاول من الحقائق لا يفعل فيه العقل سوى ان يصرح بما هو متضمن وبأن يحلل الموضوع الى محمولاتـه وصفاتـه الموجودة سلفا فيه ، فان القضايا الحاصلة عنه كانت قضايا تحليلية تكرارية لا تزيد من معارفنا . اما النوع الثانى من الحقائق الذى يستقرىء فيه العقل التجربة ويعاين حالاتها فـان القضايا المترتبـة عنه قضايا اخباريـة تركيبية ، الاولى يقينية لارتباطها بالبداهـة العقلية . اما الثانيـة فهى احتمالية تتعلـق بالواقـع وبتحولاتـه .

وقد تبنى الوضعيون الجدد هذا التمييز بين القضايا بحرفيته بل جعلوه مفهوما من مفاهيمهم القاعدية . والاختبارية المنطقيـة سارت فى نفس هذا التقليـد وانكرت انكارا قاطعا ان تجتمـع صفتا التركيـب والضرورة معا فى قضية واحدة ، فالقضية امـا تكون تركيبيـة وبالتالى فهى اختبارية واقعية ثم احتمالية ، او تكون تحليليـة وبالتالى فهى تكرارية صورية ثم يقينيـة . ومن هذا الصنـف قضايا الرياضة والمنطـق التى تتسم بالصـورة الخالصـة ، لانها الفاظ ورموز غير ذات مضمون حسى ، لـذا فصدقها ضرورى ويقينى ، الا انها لا تزيد من معارفنا بالواقـع، (فهى فى صميمها ليست الا قواعـد وضعناها لنستخدم الرمـوز اللغويـة على اساسها ، وليس فيها شىء من الحق فـوق

Digital © Al-Kalimah

ذلك» (14) ، اي هي لغة فارغة من اى مضمون ومحتوى ، ومن الممكن استعمالها قصد صياغة أية افكار او مضامين شئتنا . الا انهم خلافا لما ذهب اليه لينتز من ان ضرورتها نابعة من قبليتها ، يذهب الوضعيون الجدد الى ان صدقها قائم على مواضعاتيتها اي أتفاقنا على استخدام الرموز بكيفية معينة، هناك اذن ، في نظرهم فرق بين القضايا التركيبية الواقعية والقضايا التحليلية المنطقية والرياضية . فهذا آير يذهب في كتابه «اللغة والحقيقة والمنطق» الى ان القضايا الواقعية هي مجرد افتراضات يقينها لا يرقى الى مستوى اليقين الضروري، لذا فهي دائما ، أو على الاقل مبدئيا ، عرضة للخطا والتكذيب من طرف الوقائع تمسها لا سيما واننا لا ندرى ما سيأتي به المستقبل من جديد يمكن أن يكذب توقعاتنا ، بخلاف القضايا التحليلية التي هي قضايا يقينية يقينا عقليا وصوريا (15) . (عندما نقول بأن قضية ، أو منظومة من القضايا الهندسية خاطئة ، فذاك يعني أنها متناقضة ، بخلاف قضية او منظومة قضايا اختبارية فهي قد تكون خطئة رغم عدم تناقضها . ونحن نصفه بالخطأ ، لا لان هناك تناقضا صوريا فيها ، بل لانها اثبتت عدم أتفاقها مع الواقع (16). وذاك كرنب يصرح بأنه لمن المنطق الاستنباطي ، يؤدى بنا الانتقال من قضية الى اخرى ، الى الوصول الى نتيجة يقينها مساو ليقين المقدمات التي استنبطنا منها . وأن نفس الاسباب التي تحملنا على الاعتقاد في يقين المقدمات ، هي نفسها التي تحملنا على الاعتقاد في يقين النتيجة المترتبة منطقيا عن المقدمات . فاذا كانت المقدمات صادقة استحال على النتيجة ان تكون كاذبة . غير ان الامر في الاستقراء يخالف ذلك ، اذ يتعذر علينا القول بيقين النتيجة فيه . ولا اريد ان اقول بأن لا يقينها مرتبط اساسا بلا يقين المقدمات التي تقوم عليها النتيجة فحسب ، بل انه

Digital © Al-Kalimah

حتى عندما نفتــرض أن المقدمات صادقة ، فاننا قد نتادى من ذلك الى نتائج كاذبة . بهذا ، كل ما باستطاعتنا قوله ، هو انه بغض النظر عن المقدمات المعطاة ، تكون النتيجــة محتملة وعلى درجة معينــة من ذلك (17) .

امــا رسل ، فانــه يسيــر فى نفــس الاتجــاه ، ويميــز بيــن القضايــا التى نتوصــل اليها من الخبرة والقضايا التــى لا نتوصل اليها انطلاقا من بعض الاعتبارات الصورية الخالصــة (المنطــق والرياضة) اى دون ان نكــون ملزميــن ، قصــد التعبير بحكم عام ، باستنتاجه من حالات جزئية خاصة . وهــذا النوع الاخير من القضايا فى نظره يقينى بخــلاف النوع الاول . ((اننا نشعــر بان لذلك الحكم ((اثنيــن واثنيــن اربعة)) صفــة الضرورة وهو ما لا نشعر به حتى فى التعميمات التجريبية الموثوق بها . فهذه التعميمات تبقى مجرد وقائع ، ونشعر انه ربما كــان هناك عالم آخر تكون فيه هذه الحقائق مخطئة ، وان كانت فى العالم الواقعى صحيحة . وعلى العكس فاننا نشعر ان اثنيــن واثنين تبقى اربعــة فى اى عالم آخــر)) (18). وليس مــــن الحتمى ان تكون القضية التحليلية ذات طابع رياضى أو حسابى او نعنتها ارقام ورموز جبرية ، بل هى تمتــد لتشمل كل قضيــة يظهر التحليل انها مجرد تكرار الموضوع فى المحمول ، فاذا قلنــا اليتيم هو الطفل الذى حرم من والديــه ، فاننا لم نقل اكثر من ان ((الطفل الذى حــرم من والديه طفل حرم من والديه)) ، ذلك لاننا لو وضعنا مكان كلمــة يتيم تعريفها وهو ((طفل حرم مــــن والديه)) لحصلنا على التكرار الذى يظهر جليا فى القضية الانفة ، ومن ثم ضرورة الصدق ويقينه ، لهذا لسنا ملزمين بتجاوز حدود العبــارة نفسها لنتاكد من صدقها ، ولسنــا مضطرين كذلك الى التساؤل عن اليتامى لنتاكد من ان كل واحد منهم طفل فقد ابويه، اذ لو كان الامــر عكس ذلك لما سمى يتيما . ومن قبيل هذا قولنا

Digital © Al-Kalimah

ايضـــا ((العجل ثور صغير)) ، فهنا ايضا لم نزد على قولنـــا : ((الثور الصغير ثـــور صغير)) لاننا لو وضعنـــا فكان كلمـــة ((عجل))تعريفها ، لحصلنا على القضية التكرارية الآنفة . فبنـــاء القضايا التحليلية يقوم على تحصيل الحاصل وتكرار الرمز الواحد بكلمتين مختلفتين من الناحية المظهرية ، لكنهما من حيث العمـــق والمدلول لا يختلفان . اما القضايا التركيبية كقولنا سكان البيضاء مليونان وان الماء يتبخـــر بالحرارة ، فانها قضايا تشير الـــى وقائع ، لذا فهي تخبرنا بأمر يتم في الواقع . لذا فمبدأ التأكد من صدقها يقتضي تجاوزها الى ما تـــدل عليه واقعيا ، فصدقها ليس ذاتيا ، وليس متعلقا بها ، بل متعلق بدلالاتها وما تنبئنـــا به. لذا فهو صدق غير يقيني وغير ضروري . ويؤكد الوضعيون الجدد على استحالة الجمع بين اليقين والتركيب ، اذ يحتمل ان يكذب الواقع ما تخبرنا به القضايا التركيبية ، ولا تكون القضية ضرورية الصدق الا اذا كانت فارغـــة من كل مدلول واقعي ، اي كانت تكرارا وتحصيـــل حاصـــل .

وانطلاقا من هذا التمييز بين نوعين من القضايا ، يقيـــم الوضعيون الجدد تمييزا آخر بين صنفين من العلوم ، علـــوم واقعية واخرى صورية ، وفي هذا الصدد يقـــول همبل : ((يمكن تقسيم البحث العلمي الى فرعين كبيرين : العلوم الاختباريـــة ، والعلوم غير الاختبارية . تحـــاول العلوم الاختبارية كشف ووصف وتفسير احداث العالم الذي نعيـــش فيه والتنبؤ بها . لذا كنـــا ملزمين في تحقيق صدق عباراتها ملزمين بالاحتكام الى التجربة ، فلا نقبـــل بصحتها ما لم تؤيدها بداهة اختبارية والحصول على البداهـــة الاختبارية يتم على انحـــاء مختلفة كالتجريب والملاحظة المنهجية ... وان ارتبـــاط صدق العلوم الاختبارية بالوقائع هو ما يميزها عن العلوم غير الاختبارية كالمنطق والرياضيات المجردة، التي نثبت صدق قضاياها دون الاحتكام الى التجربة)) (19) ، وفي

Digital © Al-Kalimah

نفس الاتجاه يسير كرنب الذى يميز هو الآخر تمييزا قاطعا بين صنفين من العلوم وصنفين من القوانين . علوم صورية واخرى اختبارية . قوانين صورية صدقها متعلق بها ولا نحتكم فى تأييدها او تكذيبها الى التجربة . وقوانين اختبارية صدقها متعلق بالواقع . ويعتبر التمييز بين ما يمكن ان نطلق عليه اسم قوانين اختبارية وقوانين نظرية ، واحدا من اهم التمييزات التى يمكننا اقامتها بين هذين الصنفين من القوانين العلمية . فالقوانين الاختبارية يمكن التأكد من صدقها مباشرة عن طريق الملاحظات الاختبارية . واذا كنا غالبا ما نسمى كل ظاهرة فى متناول ملاحظتنا المباشرة «ظاهرة قابلة للملاحظة» فنه بامكاننا ان نقول بأن القوانين الاختبارية هى قوانين تتعلق بظواهر قابلة للملاحظة (20)» . وفى هذا الصدد يقول : «ان قوانين المنطق والرياضيات البحتة بطبيعتها قوانين لا نستطيع ان تمدنا بأساس نقيم عليه تفسيرا علميا ، لا سيما وانها لا تضيف شيئا جديدا يجعلنا نبصر فارقا بين العالم الواقعى وبين اى عالم آخر ممكن . فكلما حاولنا تفسير واقعة ما او ملاحظة ما حول العالم الواقعى لزمنا اللجوء الى القوانين الاختبارية . ومع ان ليس لها نفس درجة يقين القوانين المنطقية والرياضية ، الا انها تضيف على الاقل الى معلوماتنا حول بنية العالم الواقعى شيئا جديدا (21)» .

فمعارف المنطق والرياضيات هى معارف صورية تتعلق بالتفكير واللغة ، اما معارف العلوم الواقعية ، فانها تتعلق باحداث العالم الواقعى وبما تمدنا به خبراتنا المتتالية . وفى هذا الصدد، تعلق (حلقة فيينا) كبير اهمية على التمييز القاطع بين دور التجربة فى المعرفة باعتبارها المصدر الاوحد لكل ما يمكن ان يقيمه الانسان من معارف عن الواقع ، وبين الممارسة الذهنية العقلية والتى هى من طبيعة تكرارية صورية تعجز عن ان تكون مصدرا

Digital © Al-Kalimah

للمعرفـــة وكل ما باستطاعتها ان نفعله هو ان تمدنا باداة فعالة تمكننا من استنبـــاط النتائج الصوريه المترتبـــة عن القضايـــــا القاعدية او المحاضـــر وعقد مقارنة صورية فيما بينها واضفـــاء طابع الاتساق والانسجام عليها والوقوف على التناقضات الدفينة الثاوية بداخلها قصد القضاء عليها ثم اخيرا اختزال تلك القضايا وارجاعها الى عدد ضئيل نستطيع اتخاذه نظام مبدىء اولى او نظاما اكسيوميا نوفر به المجهود العقلى العلمى ونقتصـــــد بـــه التفكير (22) • فدور علوم الواقع ، هو ان تمدنا (بمحاضر) او نسخ اوليـــة عن الواقع والتى هى بمثابـــة عرض صافى او بيان تقريرى مسهب يتضمن مدة اوليـــة خام تحتاج الى بناء منطقى جديد واعادة تركيب رياضى • وفى مرحلة اولى تصاغ معطيـــات الخبـــرة صياغة رياضية فى صورة قوانين تجريبية ، ثم تاتـــــى المرحلـــة الثانية التى يتم فيها اختزال تلك القوانين وارجاعها الى عدد ضئيل وبناؤها بناء اكسيوميا ، واللغة المنطقية الرياضية هنا تلعب دورا رئيسيا • ولسنا فى حاجة الى التذكير بالتوافق الكامل بين هذه الآراء وآراء المواضعاتيين خصوصا دوهيم ، فيما يتعلق بعلاقة الرياضة بالواقع وبطبيعة القضايا الرياضية والمنطقية • يقول تنليك زعيم حلقة فينـــا : «قد يكـــون من الاصح اعتبـــار الرياضيات منطقا رمزيا (لوجيسطيقا) اذ ان نسبتها الى المنطـــق، هى كنسبة النـــوع الى الجنس • علاوة على ذلك ، ليس المنطق منهجا ، بل لغة • ونعتبر ان من الافيد ، عملا بنصيحة ليبنتز ، استعمـــال هذه اللغة حيثما لاحت امكانية ذلك (23) •

وفى نفس الخط يسير كرنب مبينا انـــه اذا كانت القضايا التركيبيـــة هى القضايا المتعلقة بالواقع ، اى عبـــارات العلوم التى تدرس الواقع ، فان «قضايا المنطـــق والرياضة قضايـــا تحليلية • واذا نظرنـــا اليها من زاويـــة افادتها للعلـــم خاصة، فان فائدتها لا تتعـــدى جعل العمليات بواسطة القضايا التركيبية

Digital © Al-Kalimah

اكثر سهولة . اذ قد يكون بمستطاعنا تشييد لغة علمية لا تحتوى سوى على قضايا تركيبية ، ولا نعثر فيها على اية قضية منطقية أو رياضية ، ويمكن التعبير بواسطتها عن جميع قضايا علوم الواقع دون ضرر . غير ان مايدفعنا الى عدم اللجوء الى ذلك هو دوافع التبسيط العملى ، فبسببها ادخلنا القضايا التحليلية ...» (24) . ويساند آير نفس هذا الموقف، لاسيما وانه يؤكد كباقى دعاة الوضعية الجديدة على ان القضايا التحليلية لا تضيف جديدا الى معلوماتنا ولا تخبرنا بشىء عن الواقع . فهى غير ذات مضمون واقعى وفحوى مادى . لهذا يصعب على ايه تجربة ان تكذبها ، غير ان لها دورا عمليا فى تنظيم خبراتنا الواقعية وفى طرد التناقضات التى قد توجد مختفية فى القضايا التركيبية ، فهى ، اى القضايا التحليلية، بمثابة نحو ، او علم قواعد يجنبنا الاستعمال السىء لمعلوماتنا ويتيح لنا عرضها فى لغة سليمة وقالب بسيط وملائم . فقوة المنطق والرياضة وطاقتهما ترجع الى كوننا لانملك من القدرات العقلية ما يجعلنا نستغنى عن خدماتهما ، ان عقلنا محدود وعاجز عن ان يحيط احاطة كلية بالنتائج المترتبة عن المبادىء التى يتخذها كقضايا اولية لاقامة بناء او نسق علمى. ولا ادل على ذلك من ان ابسط العمليات الحسابية تحير ذهن الانسان مما يجعل من الصعب عليه ادراك حلها مباشرة رغم انها عمليات تقوم على التكرار وتحصيل الحاصل . فعملية الضرب «91 × 79 = 7189» نعجز امامها عن الاقرار مباشرة بالنتيجة ، رغم ان هذه الاخيرة ليست تمثل شيئا جديداً ، بل هى متضمنة سلفا فى العددين ، وحتى نتأكد من ان «91 × 79» مرادف لـ «7189» نلجأ الى الحساب الذى ليس سوى مسطرة عملية تفيدنا فى تحويل المقادير تحويلا تكراريا ، اى مسطرة بفضلها نحول صورة العبارات ونغيرها دون ان يمس ذلك من

Digital © Al-Kalimah

قريب او بعيــد دلالتها . فجداول الحساب (الضرب ، الجمع ..) هى قواعد تفيدنا فى التحويلات التكرارية للقضايا المصاغة أمــا صياغة جبرية رمزية او القضايا المصاغــة فى لغة الحيـــــاة الاعتياديــة (25) .

وتتجلى مواضعاتية التيــار الوضعى الجديد بشكل أجلى مع كرنب لا سيما وأنه يعتبر ان المرحلة الثانية التى يمر بهــا العالم تقــوم على صياغة القوانين التجريبية فى لغة نظرية مــع اضفاء الطابع الاكسيومى عليها، لهذا الغرض يفرض العالم على الطبيعــة لغته هو ، اى لغــة يختارها ، مراعيا فى اختيــارة ذلك عــدة اعتبارات اهمها النجوع والبسـطة والملاءمــة . ان كيفيــة العالم فى معالجة امــوره حسب كرنب ((لا تعبر ســوى عن حريته فى اختيار لغــة ناجعة . اذ لا توجد هناك كيفيــة واحدة لبناء لغــة علمية ، بل فئة كيفية)) (26) . وقضايا المنطق والرياضة ليست سوى تلك القواعد المواضعاتية التى بناء عليها نستخــدم الرموز ونستخرج قضية من اخرى استخراجا صحيحا. فهى اذن ادوات فى يد العالم يستخدمها ، مراعيا فى ذلك بساطتها وملاءمتها ويسرها ونجوعها .

والملاحظ ان الوضعية الجديدة ، خصوصا مع كرنـــب ، انسجاما مع نظرتها هذه للغة ، اولت اهتماما اكبر لتحليل اللغة وللتركيب اللغوى ولاستخراج ما يكمن فى هذا التركيب من مبادىء منطقيــة ، ويعتبر كرنب من بين من اولوا كبير عناية لهذا الجانب خصوصا فى كتابه ((التركيب المنطقى للغة)) (1937) حيث نبه الى ان قواعد المنطق هى فى نفس الوقت قواعد اللغة وان هنــاك توازى بينهما ، وهو توازى يظهر جليــا أذا ما حاولنا صياغــة نسق صورى رمزى لكل منهما يتشكل من رموز فارغة من كــل مضمون او فحوى او معنى ، آنذاك نرى ان النسقين متشابهان

Digital © Al-Kalimah

صوريـــان . وقد كـــان كرنب فى ذلك متـــأثرا بتنبيه سبقه اليه «فتجنشتين» الذى لمح فى الرسالـــة المنطقية الفلسفية (1922) الى ان قواعـــد المنطق واللغـــة شىء واحد وان صورتهمـــا متشابهـــة لان الفكر واللغة شىء واحد . يقول فتجنشتيـــن : «فى قضيـــة ما من القضايا نعبر عن التفكير بكيفية تكون معهـــا عناصر القضيـــة مطابقة لموضوعات التفكير» (27). وفى نفـــس المكان يذهب الى ان «مضمون القضية» يعنى مضمون قضيـــة ذات معنى . اى ان القضيـــة تتضمن صورة المعنى وليـــس مادته» (28) . فكرنب باعتنائـــه بهذا الجانب كان يريد تلبيـــة نـــداء فتجنشتين ، ذلك ان حركة كرنب المنطقية اهتمت ابتداء من سنة (1938) بعد صدور مقلـــة «الاسس المنطقية لوحـــــدة العلم» بخلق لغة صورية رمزية لا تشير الى الاشياء بكلمـــات والفاظ ، بل بارقـــام ورموز ، ولا تقتصر الصياغـــة الصوريـــة هنا الاشياء بل حتى على علاقاتها (فوق ، تحـــت ، اين ...) وبذلك يتكون نسق رمزى صورى متعدد القضايا ، بواسطـــــة التحويل والاقتصاد يمكن ابراز العلاقات الصورية الاستنباطيـــة القائمـــة بين قضاياه اى قواعد اشتقاق قضية من قضية اخرى.. وكما يدل على ذلك اسم المقـــال نفسه تصورت حركة كرنـــب ان التمييز بين نوعين من العلوم : صورية واختبارية ولونيـــن من القضايا : تحليلية وتركيبيـــة يمكن اختزاله وتقليصه باقامـــة لغة صورية واحدة لجميع العلـــوم ، رغم اختلافها ، تكون قاعدة لوحدة العلم نفسه . وتفصيل ذلك كما يلى : قضايـــا العلـــوم الصورية ، اى المنطق والرياضة ، قضايا صورية وتحليلية ، اما قضايا باقى العلوم الاخرى الاختبارية ، فهى قضايا تركيبيـــة واقعيـــة . وقد تصور كرنب كما اشرنا آنفـــا ان بالامكان اضفاء الطابـــع الصورى الرمزى على قضايا هذه العلـــوم وذلـــــك بالاستعاضـــة عن كلماتها المشيرة الى اشيـــاء بارقـــام ورموز ،

Digital © Al-Kalimah

بحيث يتحصل لدينا فى الاخير بنـاء رمزى صورى يعطينا قوانين وقضايا العلوم الاختباريـة مصاغة فى قالب صورى اى علـى صورة بنـاء منطقى لا يهتـم بالمدلول بقدر ما يهتم بالهيكـل المنطقى العام اى بالصـورة المنطقية للقضايا والعلاقات .. ثم ذهب كرنب الى ان هذه اللغة الصورية المتحصلة من تجريدنـا لقضايا العالم الفيزيائى وصياغتنا الصورية لها يمكن اتخاذها كلغة رمزيـة نصوغ فيها قوانين العلوم الاختبارية الاخرى : البيولوجيا والسيكلوجيا . اى ان لغة الفيزياء الصورية ستغدو قاعـدة اختزال نرد اليها قضايا العلوم الاختبارية الاخرى ونصوغ فيها، وهو امر سيمكننا فى الاخير من تكوين لغـة صورية موحدة لجميع العلوم الاختبارية ، هى لغة الفيزياء الصورية أو اللغـة الفيزياويـة (29) والتى ستكون اساس وحدة لغـة العلـم الاختبارى الصورية التى لا تنظر سوى الى الجانب المنطقى مـن العلوم دون اهتمام بالفحوى والمعنى . اذ بدلا من ذلك يقتـرح كرنب الاهتمام بجانب الصور والاشكال اللغوية التى تتخذهـا القضية العلمية دون التفـات الى الوقائع التـى تشير اليها . وبعد هذه المرحلة ، اى مرحلة اقامة لغة منطقية فيزياوية لجميع العلوم الاختبارية ، تأتى المرحلـة الثانيـة وهى مرحلة دمـج هذه اللغـة فى اللغـة الرمزيـة الصورية للعلوم الرياضيـة والمنطقية وهو امر ميسور لا سيما وان ما يجمـع بين هذيـن اللغتين هو صورتيهما اى كونهما معا لا يشيران الى اى شـىء ولا يمثلان سوى الجانب البنائى التراكيبى من العلـم . فوحدتهما اذن ثابتة لاغبار عليها ، وبوحدتهما تتم وحـدة العلم الصورية لا الواقعيـة .

وانطلاقا ايضا من التميز بين نوعين من القضايا ، ذهب الوضعيون الجدد الى ان هناك نوعـان فقط من المعـارف الصحيحة والمشروعة : معارف فكرية لغوية ، ومعارف واقعيـة

Digital © Al-Kalimah

تجريبية ، تكون القضية التحليلية صحيحة وذات معنى اذا لم يوجد تناقض داخلى بين حدودها ، فمعيار صدقها هو اتساقها المنطقى الداخلى ، اما القضية التركيبية فتكون صادقة اذا كانت مطابقة لواقعة ما من وقائع العالم الخارجى مطابقة مباشرة ، وكل ما يخرج من هذين النمطين من المعرفة يعتبر معرفة غير مشروعة .

فحتى عندما يتوفر الشرط النحوى فى القضايا ، اى عندما تكون جملا لغوية صحيحة تترتب الفاظها ترتيبا منظما يحترم قواعد النحو فانها قد لا تستوفى الشرط المنطقى القضايا اى كونها قضايا اما ترتبط بصور الفكر (المنطق والرياضة) او تتعلق بظواهر العالم الواقعى (العلوم الاختبارية) .

ومن اهم المهام التى على الفلسفة ان تضطلع بها فى نظر الوضعيين الجدد هو هذا التحليل المنطقى الذى يبرز ان كانت القضية المعنية تحمل دلالة واشارة مباشرة الى العالم الخارجى ، بهذا يكون لها حق الانتماء الى مادة علم معين ، ام انها بدل ان تشير الى واقعة من الوقائع الخارجية تتحدث عن قضايا او افكار او تصورات ، اى يدور حديثها عن وقائع العالم الخارجى ، بل عن العبارات او الاقوال التى تدور حول تلك الوقائع ، وهذا النوع من التحليل قمين بان يبين لنا حتى تكون القضية مفيدة وذات دلالة — اما بصورة مباشرة ، باشارتها الى وقائع العالم الواقعى ، او بصورة غير مباشرة عندما يدور قولها حول كلمة او عبارة تدل على واقعة من وقائع العالم الخارجى — ومتى لا تكون ذات دلالة .

الفلسفة اذن تحليل ، فى نظر هؤلاء ، وهى لن تكون علما الا اذا التزمت حدود التحليل ، وهو امر سيسمح لها بان تسير فى نفس الطريق العلمى المضمون الذى سارت

Digital © Al-Kalimah

فيه باقى العلــوم الاخرى والمتسم بالدقــة والتحديد ، وبالاعتناء بالقضايــا العلميــة بدلا من الاهتمام باشباه المشاكل . وفــى هذا الصدد يذهب فتجنشتين الى القــول : ((ليست الفلسفــة علما من علــوم الطبيعــة (وكلمة (فلسفة)) يجب ان تعنى شيئا اما يكــون اعلى او ادنى من علــوم الطبيعة ، ولكن ليس على قدم المساواة معها) . وموضوع الفلسفة هو التوضيح المنطقى للافكــار . فهى ليســت نظريــة ، بل فاعليــة ، لذا فعملهــا يتكون اساسا من تضيحات . ولا تكون نتيجتها عددا من القضايا الفلسفية ، انما توضيحا للقضايا . فالفلسفة يجب ان تعمل على توضيح وتحديد الافكــار بكل دقة ، والا ظلت تلك الافكار معتمة ومبهمة (30)) . ويتجلى واضحا من هذا النص ان الفلسفة لــن يمكنها ان تسمو الى مقــام العلم ولن تشغل نفسها بما يشغــل به نفسه من بحث عن القوانين الرابطة بين الظواهر وفى مشكلات تتصل بالواقع ، لان هذه المشكلات ينكلف بها العلم ، اذا كــان الامر كذلك ، فانها لن تدعى ايضــا السمو كليــة عن الواقــع وعن العلم بطرحها مشكــلات أخرى الى جانب مشكــلات العالم المادى او بخلقها لميادين وبمجالات غير ميادين العلــم ، ان دورها هو التحليل المنطقى ، وحسب ، لقضايا العلم ومعطياته وبذا تغدوا تفكيرا فى العلــم او منطقا للعلم او نظريــة لــه . ((هدفها هو التوضيح لا الاضافــة الجديدة ؟ فليس هناك من عالم الا عالــم الواقع ، وليس لاحد ان يتحدث عن العالــم حديثا موضوعيا الا رجال العلوم المختلفة ، وللفلسفة ان تجرء بعد ذلــك فتحلل وتوضح ، للعلم ان يقــرر وللفلسفة ان توضح له ما يقــرره ، والخير كل الخير ان يجرء التوضيح نفسه علــى ايدى العلمــاء انفسهم ، لانهم مشربون بموادهم علومهم ، لكنهم اذا ما فعلوا ، فلن يكونوا عندئذ علمــاء ، بل يصبحون فلاسفة لعلومهم التــى يتناولونها بالتوضيح والتحليــل (31)) .

Digital © Al-Kalimah

والملاحظ ان هذا الاتجاه سار فيه كل الوضعيين الجدد ، يقول هو الآخر بان معنى القضية هو طريقة تحقيقهـــا ، وان دلالتها مرتبطة بمبدأ التحقق : «ان القضية لا يكون لها معنى الا اذا كان من الممكن التحقق من صدقها او كذبها ، والقضية التـــى تتكلم عن نفس الواقع الخارجي الواحد وتكون صادقة وكاذبـــة ايضا ، انما لا تقول شيئا عن العالم ، بل هي قضية فارغـــة لا استطيع انها ذات معنى (32)» . ويعنى التحقق هنا فى نظـــر شليك توفر الوجود الواقعى أو ما يقـــع فى خبرتنا خارجيا بحيـــث يكون هو معيار صدق أو عدم صـــدق القضيـــة انطلاقـــا من مواجهتها به . وهذا شبيه بما ذهب اليه فتجنشتين عندما قـــال بضرورة مقارنة القضية بالواقـــع الذى جاءت تصوره ، فـــاذا طابقته كانت صادقة ، واذا لم تطابقه كانت كاذبة (33) . ويذهب آيـــر الى ان «ايـــة عبارة تكون ذات دلالة واقعية وحقيقيـــة بالنسبة لشخص ما ، اذا كان ، واذا كان فقط هـــذا الشخص يعرف كيف يتحقق من القضية التى تريد هذه العبـــارة الافصاح عنها ، اى اذا عـــرف ما هى الملاحظات التى تقوده — فى ظروف معينـــة — الى قبول القضية على انها صادقة ، او رفضهـــا على انها كاذبة (34) » . وفى هذا الكتـــاب الذى اقتبسنـــا منه هذه القولة ، يدافـــع آيـــر بحماس منقطع النظير عن مبـــدأ التحقق ذلك حيث خصص قسما هاما لعرضه ومناقشة معترضيه من حماة الميتافيزيقا . وقد حاول ان يبرز ايضـــا أن الحكم على فشل الميتافيزيقا نابـــع من كون قضاياها فارغـــة من المعنـــى وانها لا تعطى للالفاظ التى تستخدمها فى عباراتها اى معنـــى . يقول : «ان تحاملنا على الفيلسوف الميتافيزيقى ، ليس انه يحاول استخدام العقل فى ميـــدان يستحيل عليه ان يغامر فيه بنجـــاح ، بل هو انه يقدم عبـــارات لا تتوفر فيها الشروط التى لا بد من توافرها لكى تكـــون العبارة ذات معنى (35)» . ومعنى عـــدم

Digital © Al-Kalimah

وافــر تلك الشروط فى نظر آيــر هو ان القضية الميتافيزيقيــة، ليست قضية منطقية رياضية يمكن التأكد من صحتها انطلاقا من معطيات الاتساق المنطقى ، ولا حتى بقضية اختبارية تشير الــى واقعة من الوقائع ، فهى قضية لا تنتمى الى هذه ولا الى تلــك . «يمكن تعريف العبارة الميتافيزيقية والقول انها عبارة يراد بهــا التعبير عن قضية حقيقية ، لكنها قضية فى حقيقة امرها ، لا هى تعبر عن تحصيل حاصل ، ولا هى تعبر عن فرض اختبارى . ولما كانت تحصيلات الحاصل والفروض الاختباريــة تستنفذ كافــــة القضايا ذات المعنى ، كان لنا مبــرر للتأكيد بأن كل القضايــــا الميتافيزيقية خاليــة من المعنى (36)» . فالقضية الميتافيزيقيـــة ليست بالقضية الاختبارية ذات المحتوى الواقعى ، اذا فهــــى لا تمثل قضايا حقيقية ، بل قضايا زائفة او اشباه القضايــــا والوقائع التى تصفها امثال هذه القضايا يستحيل ويتعذر تحقيقها صوريا او اختباريا ، وما دام هذان هما المنهجان المشروعــان الجاهزان ، فلا يوجد منهج ثالث يمكن انطلاقا منه الحكم علــى قضايا الميتافيزيقا . وبهذا الصدد ينبه آيــر الى ضـــــرورة التمييز بين الفلسفة والميتافيزيقا ، فبينما الاولى ضرورية — ان اخذناها بمعنى التحليل — لتوضيح القضايا العلمية وجميـــــع العبارات ، نجد ان الميتافيزيقا ، بمعنى المعرفة غير المشروعة، ينبغى حذفها من الوجود (37) ، وتعويضها بالتحليل المنطقى للغة .

وكرنب بدوره يعتبر ان هناك ثلاثة انواع من القضايــــا والعبارات : قضايا يمكن التأكد من صحتها او عدم صحتها تأكدا صوريا باعتبار انها قضايا تحصل حاصلا ولا ترمز الى شىء فى الواقع الخارجى مثل قضايا المنطق والرياضــة التى نتأكد مــن صدقها او كذبها انطلاقا من اتساقها المنطقى او عدم اتساقها . ثم قضايا اختبارية لها علاقة بميــدان العلوم الاختبارية ، يمكن التأكد من صدقها بمقارنتها مع الواقعة التى جاءت القضية لتكون

Digital © Al-Kalimah

وصفا لها . اما النــوع الثالث فهو القضايا التى لا تدخل فــى النوعين الاوليــن ، وهى القضايا الخاليــة من المعنى . فاذا كانت قضايا النوع الاول صدقها صدق ومطلق وضـــرورى ، وقضايا النــوع الثانى قضايا احتمالية ، فان قضايا النــوع الثالث خاليــة من المعنى ، ومن هذا النــوع قضايا الميتافيزيقا التـــى يجب استبعادها ، وقد ذهب كرنــب فى مقال اسماه : «حـــذف الميتافيزيقا باستخدام التحليل المنطقى للغة» نشر فى الكتـــاب الجماعى الذى ظهر تحت اشراف « آير » بعنوان « الوضعية المنطقية» الى ان «التحليل المنطقى فى الفلسفة المعاصرة ، ينتهى بنا الى ان جميــع العبارات التى تتنــاول موضوعات تدخل فى نطاق الميتافيزيقا ، هى عبارات خاليــة من المعنـــى (38)» . ويستدل على ذلك بأمثلة من الالفاظ الواردة فى الميتافيزيقا مثــل لفظ «مبدأ» «اصل» «المطلــق» ، «اللاوجود» ... وبامثلة من العبارات الميتافيزيقية من العبارات الميتافيزيقية الخالية من المعنى التى يسمها بأنها اشبـــاه عبارات أو قضايا زائفة لا تقول شيئا . ويعتبر كرنب فى مقاله الموما اليـــه ان معارضة الميتافيزيقا طــوال تاريخ الفلسفة والفكـــر الانسانى منذ الشكاك اليونان حتـــى الفلاسفة الاختباريين ، لم تكن معارضة تعطى بديلا او تقتـــرح حلا جديدا ، كل ما كانــت تؤكد عليه هو القول بلا فعاليــة الميتافيزيقا دون ان تبرز الاسس المنطقية المتناقضة التى تقـــوم عليها القضايا الميتافيزيقية ، وان هذا الفراغ هو الذى تريد ان تملاه الوضعية المنطقية الجديد عندما تقتـــرح ان تصبح الفلسفة تحليلا منطقيا لقضايا العلم نفسها ، فلئن كان العلم يهتم بالمعرفة من حيث مضمونها ومحتواها ، فان الفلسفة تعنى بالمعرفة من حيث البناء اللفظى والتركيب اللغوى اى الاطار والهيكل . وهذا هو ما يسمى بالتحليل الذى تغدو به الفلسفة نظرية للعلـــم او منطقا للعلم او ما عدا ذلك من الاسمـــاء . وحذف الميتافيزيقا

Digital © Al-Kalimah

ياتى لا لان الانسان عاجز عن تجاوز حدود الواقـــع والخبرة الى ما وراءها ، بل لان القضايا الميتافيزيقية تزعم انها ترمز الـــى شىء خارج حدود الواقع الخارجى وخارج حدود العلاقـــــات المنطقية الصورية ، لهذا تبقى بطبيعتها قضايا فارغة أو خالية من المعنى ، لاسيما وان منطق التحليل يلزم ان تكون الالفـــــاظ والعبارات تشير الى وقائع موجودة فعلا ، بينما القضيـــــة الميتافيزيقية لا تشير الى شىء ، لذا لا يمكن تحقيقها والتثبت من صدقها او كذبها ، ويبقى رفض الميتافيزيقا والمشاكل التـــــى تطرحها قضاياها ، ليس نابعا من صعوبة حلها ، بل نابعا من كونها تطرح مسائل زائفـــة يصعب منطقيا ، ان لم نقل يستحيل، اعطاء اجوبـــة لها ، فهناك تزييف فى الاسئلة هو الذى يـؤدى الى الصعوبات المنطقية التى نلاقيهـــا فى محـــاولة ايجاد اجوبة لها . فاستحالة الاجابة ليست عملية ، بل هى منطقية ومبدئية .

وخلاصة القول أن معنى القضية فى نظر الوضعية الجديدة هو نفسه طريقة تحققها ، فاذا لم نجد لتحقيقها سبيـــلا ، بقيت قضية خاليـــة من المعنى . وعلى هذا الاساس يجب الغـــاء الميتافيزيقا لان التحليل المنطقى يريد سبيـــلا ما لتحقيقها لكنـــه لا يعثـــر عليه ، لذا تبقى قضاياها خاليـــة من المعنى .

وقبل ان انهى حديثى هذا عن مبدأ التحقيق ، أود الاشارة الى بعض الاصلاحات التى حاول بعض الوضعيين الجدد ادخالها على هذا المبدأ ، وأخص بالذكر (كارل بوبر) الذى يذهب فى كتابه الاساسى : (منطق الكشف العلمى) الى ضرورة اعـــادة النظر فى مبدأ التحقيق مثلما صاغه باقى الوضعيين الآخرين لا سيما وان شرط (قابليـــة التحقيق) لا يتوافر فى جميع القضايا . فاذا كان مبدأ التحقيق يعتبران معنى القضية هو كيفية تحقيقها ، واذا لم نجد لتحقيقها وسيلة او كيفيـــة كانت قضية غير ذات معنى ،

Digital © Al-Kalimah

وعلى اساسه تحذف القضايا الميتافيزيقية كلها نظرا لعدم قابليتها للتحقيق الاختبارى ، فان بوبر يعتبر اننا عندما نجعل معنى القضية متوقفا على سبل تحقيقها وكيفيات التاكد منها سنصبح مضطرين ارفض كثير من القضايا العلمية ذاتها ، نظرا لان شرط قابلية التحقيق الكامل لا يتوافر فيها ، فعندما اقول بان الحديد يتمدد بالحرارة فانى لم اجد وسيلة تمكننى من التحقيق الكامل لهذه القضية ، اى التحقيق الذى ينتهى بى الى اليقين الكامل ، وعلمى ازاءها هو علم على درجة من الاحتمال اذ لاننى اذا علمت بان الحديد تمدد فى مامضى فلا وجود لاى مانع منطقى من ان لا يتحدد مستقبلا ، فالتثبت اليقينى الكامل متعذر . وكل النظريات العلمية من هذا النوع ، لا نستطيع التاكد من صدقها انطلاقا من وقائع اختبارية فردة ، فهى غير قابلة للتحقيق ابدا تحقيقا اختباريا (39). وحتى لا نتعرض ، فى نظر بوبر ، لنفس الاغلاط الفادحة التى تعرض لها الوضعيون عندما أصبحوا يرفضون كل قضية على اساس عدم امكان تحقيقها ، علينا ان نختار معيارا آخر يسمح لنا بان نقبل فى ميدان العلم الاختبارى حتى تلك العبارات التى لا يمكن تحقيقها والتثبت منها اذ ان غالبية النظريات هى من ذلك النوع . «غير انى الح الحاحا اكيدا على ان اية منظومة لا تكون منظومة اختبارية او علمية الا اذا كانت قابلة لان تخضع لاختبارات تجريبية . وهذه الاعتبارات تؤدى بنا الى القول بان قابلية تكذيب منظومة ما وليس قابلية تحقيقها ، هى ما ينبغى اتخاذه كمعيار للتمييز (40) » . لذا لن يكون من اللازم ان نجعل معيار صدق منظومة علمية ما يقينها الكامل بل احتمال تكذيب الوقائع لها «يجب على كل منظومة تنتمى الى العلم الاختبارى ان تكون قابلة الدحض من طرف التجربة (41)» ، وينبه بوبر الى

Digital © Al-Kalimah
انه لا يعتبر معيار ((قابيلة التكذيب)) هو اساس معنى قضية ما من القضايا ، اى ان معنى هذه الاخيرة ليس هو نفسه طريقة تكذيبها ، بل يعتبره معيارا للتمييز بين لونين من القضايا : قضايا قابلة للتكذيب والاختبار التجريبى ، واخرى لا يتوافر فيها شرط قابلية التكذيب دون ان يلزم عن ذلك ضرورة خلاؤها من المعنى . فهو لا يربط المعنى بقابلية التحقيق مثلما يريد باقى اعضاء جماعة فيينا ولا يرى أن القضيه تكون ذات معنى اذا امكن مقابلتها بالوقائع او ارجاعها ، ان كانت قضية شمولية ، الى قضاياها الذرية الابسط أى الى العبارات المفردة التى يكون مصداقها هو الواقعة الخارجية التى جاءت تلك الجملة لتصفها لاسيما وان القضية العامة الشمولية تقال عن مجموعة من القضايا المفردية البسيطة التى ترجع مباشرة الى عالم الخبرة ، بل يفصل المعنى عن قابلية التكذيب (او التحقيق) ويرى ان القضايا تكون علمية اذا امكن تكذيبها وإلا تكون علمية اذا تعذر ذك رغم ما يكون لها من معنى ، اى ان يقينها يكون على قدر قابليتها للتكذيب ، لهذا ينتقد بوبر فتجنشتين وجماعة فيينا الذين ربطوا المعنى بقابلية التحقيق مبينا ان القوانين والنظريات العلمية نفسها تماثل القضايا الميتافيزيقية من حيث عدم قابليتها للتثبت لانها قضايا عامة (او دوال قضايا) لا تشير الى وقائع خارجية وخبرات مباشرة يمكن تحقيقها بالرجوع اليها . فالصعوبات التى يطرحها مبدأ قابلية التحقيق اكثر ، فى نظر بوبر من الصعوبات التى يحلها (42). وتخطى مثل تلك الصعوبات يتطلب منا اعادة النظر فى مفهوم ((المعنى)) ومراجعته ، بل التخلى عنه وتعويضه بالقابلية للتكذيب او القابلية للحسم . ويترتب عن ذلك أن العبارات والقضايا العلمية لا تخبرنا بشىء عن العالم الواقعى الاختبارى الا بقدر ما تكون قابلة لان

Digital © Al-Kalimah

تواجه بالتجربة ، وان تخضع لاختبارات تجريبيـــة منسقة ، اى لاختبارات قد تؤدى الى دحضها وتكذيبها . وهى اختبـــارات منهجية ، ناتجـــة عن قرار منهجى يتخذه العالم (43) . فواقعية قضية عاميـــة ما ، تقاس بمقـــدار قابليتها للتكذيب ، كمـــا ان عدم واقعيتهـــا ، تقاس بمقدار عـــدم قابليتها التكذيب .

والاساس الذى يصدر عنه بوبـــر ، فى كل هذا ، هو اعتبـــاره العلـــم لا يعطينـــا منظومة قضايا يقينيـــه مبنية بنـــاء صحيحا، واعتباره العـــلم ليـــس معرفة ، ان كان يقصـــد بهذه الاخيـــرة المعرفـــة اليقينيـــة والمبرهن عليها برهنة مطلقة . ولا يمكننـــا الوصول الى اليقين المطلـــق الاعلى مستوى تجـــاربنـــا الذاتية المتعلقـــة بالاقتنـــاع الذاتى ، او على مستوى الثقة الشخصيـــة. ذلك ان لليقيـــن اساســـا نفسيـــا سيكلوجيا لا اساســـــا ابستملوجيـــا موضوعيا (44). فالحقيقة واليقيـــن متقيدان بامثلة جزئية وباختيارات يقـــوم بها العالم وليس لهما اى وجـــــود موضوعى . والحقيقى يكـــون كذلك ، فى حدود خبرتى التى اجريها على الاشيـــاء . وفى هذه النقطة يبلغ المذهب الوضعى الجديـــد اعلى مراحل تطرفـــه خصوصا عندما يعتبر الحقيقـــة واليقين مرتبطين بما نجريه على الظواهر من روائز واختيارات ، فهمـــا نسبيـــان ذاتيـــان وليـــسا موضوعيين . فى هذه النقطـــــة ايضـــا تلتى آراء بوبـــر بآراء بريـــر بآراء (بريدجمان) الفيزيائى الامريكى (1882 — 1961) رائـــد النزعة الاجرائيـــة التى ذهبت الى عـــدم الاعتـــراف سوى بالظواهر القابلـــة للتجريب والقياس عليها . واعتقدت ان المفاهيـــم العلمية مفاهيم اجرائيـــة ، انها ترتد الى اثباتـــات شخصية وتقريرات ذاتية ، فحقيقتها وطرائق اثباتها شىء واحـــد ، لذا فهى لا تملك اى يقين بمعـــزل عـــن اختيار العـــالم لهـــا ولا يملك أى وجود واقعى خـــارجـــا عن

Digital © Al-Kalimah

ارتباطها بالعالم . كما تلتقى أيضا بآراء همبل ، الذى يذهب الى انكار ما يدعى بالحقيقة معتبرا ان الصدق والكذب مرتبط بتجريباتنا الجزئية على الاشياء وباختيارنا للقضايا والفروض ومبينا أن تحقيق فرض ما من الفروض والتأكد منه شىء متعذر اذ من يدرينا ان المستقبل سيكذبه ، لذا فاننا نختبر الفروض والقضايا العلمية دون ان تكون لنا اية صلاحية منطقية فى اضفاء صبغة اليقين عليها او نزعه عنها (45) . فكل قضايا العلم ، بما فى ذلك القضايا الاساسية التى نتخذها محكا لصدق ما عداها ، انما تنساق نتيجة لقرارات ارادية يقررها زاعموا تلك القضايا ، ولهم ان يغيروها ، وكل ما يراعونه فى كل حالة هو ان تكون مجموعة القضايا العلمية المزعومة على اتساق ، بعضها مع بعض ، فوصفنا لقضية ما بالبطلان اساسه هو اننا نحكم عليها انطلاقا من ملاحظتنا انها تتنافر مع قضايا اخرى ، ولا تتسق معها فى بناء فكرى واحد ، وليس هناك اى ضرورة منطقية تلزمنا بتبنى نسق واحد من القضايا نعتبره هو النسق الاوحد الممكن ، بل باستطاعتنا اقامة انساق عديدة متباينة فيما بينها ، لكن أفضلها هو النسق الذى ينطبق على الواقع اكثر ، فمعيار الصدق معيار عملى برجماتى يقرره السلوك النفعى للانسان ولا تقرره الضرورات الفكرية المنطقية .

والملاحظ ان هذا الاتجاه الذى طوره (بريدجمان) فى كتاب (منطق الفيزياء الحديثة) (1927) هو الذى سار فيه اصحاب مدرسة كوبنهاغن (هيزنبرغ ، بوهر ، ديتوش) عندما ركزوا على أن معنى قضية ما مرتبط بطرق تحقيقها وملاحظتها ، وان الظواهر لا تملك اى واقع فيزيائى موضوعى قائم بذاته وباستقلال عن طريق تحقيقها وملاحظتها والقياس عليها ، اى انها لا توجد الا بالنسبة لذات تختبرها تجرب عليها (ويترتب

Digital © Al-Kalimah

عن وجهة النظر هذه أن القضايا العلمية تشير الى طرائقنا التجريبية وليست تشير الى الاشياء ذاتها التى هى موضوع التجربة (46)) . وهذا هو السبب الذى من أجله قلنا ان مدرسة كوبنهاغن تمثل لونا وضعيا جديدا يحاول انطلاقا من الاشكالية الجديدة التى طرحتها الفيزياء الكوانطية ان يعيد تمييزا وضعيا تصوره ماخ بين المعرفة الحسية ، اى معرفة الطبيعة مثلما تمدنا بها حواسنا ، وبهذا المعنى لن يكون للظواهر وجود موضوعى مستقل عن من يدركها ولن تكون سوى مركبات ذهنية من الاحساسات ، ومعرفة الشىء فى ذاته التى هى مستحيلة لاسيما وان الوجود ادراك اذان ما نلاحظه ليس الطبيعة فى ذاتها ، بل الطبيعة فى آرتباطها بطرائقنا ومناهجنا ، أى فى ارتباط بما يسمونه « الذات » .

من خلال العرض الذى قدمناه لمختلف تصورات للواقع لدى الوضعيين ، يمكننا القول ان الوضعية لا تمثل اتجاها واحدا، بل اتجاهات متباينة غير ان تباينها ذلك ، لا يمنعها من ان تلتقى فى نظرتها للواقع عند اشكالية واحدة . لذا سنحاول فيما يلى ابراز وحدة هذه الاشكالية وذلك بذكر النقط التى تلتقى عندها جميع التيارات والنزاعات الوضعية والتى هى بمثابة المفاهيم المركزية للنظرة الوضعية . ويمكن القول بصورة عامة أن العناصر المشتركة المكونة للاشكالية الوضعية هى كما يلى :

1 — التركيز على ان التجارب والخبرات هى المصدر الوحيد لمعارفنا عن الواقع .

2 — نفى الضرورة واليقين عن القضايا الاختبارية والتجريبية التى تقوم عليها علوم الواقع ، لاستحالة الجمع بين الضرورة والتركيب .

Digital © Al-Kalimah

3 — الضرورة واليقين لا يجتمعان الا فى القضايا التحليلية التكرارية ، ومن ثم التمييز بين نوعين من القضايا . قضايا تصور الواقع ، صدقها احتمالى مرهون بالواقع وبتبدلاته ، وقضايا لا تصور الواقع ، تكرارية ، صدقها ضرورى ويقينى غير مرهون بمكان معين ولا بزمان معين وليس يتعلق بظروف خارج الفكر .

4 — قصر المعرفة المشروعة على هذين النوعين من القضايا وبالتالى على نوعين من العلوم يقومان على هذه القضايا : علوم واقعية اختبارية واخرى صورية منطقية .

5 — رفض كل القضايا التى لا يمكن التاكد من صحتها او التى لا يمكن تحقيقها ، ومن هذا النوع القضايا الميتافيزيقية التى لا يتوافر فيها شرط قابلية التحقيق ، لذا فهى تبقى قضايا خالية من المعنى .

6 — حصر الفلسفة فى التحليل المنطقى للقضايا والعبارات ، خصوصا منها قضايا وعبارات العلم . اذ ان المنهج الصحيح فى الفلسفة ، كما يقول فتجنشتين «هو الا نقول شيئا خارجا عما يمكن قوله ، ان نقول قضايا فى علوم الطبيعة — قضايا اذن ليس لها علاقة بالفلسفة — وان نبين لكل امرىء يريد ان يقول شيئا فى الميتافيزيقا انه لم يعط معانى للرموز الواردة فى قضاياه ، وهو منهج لن يكون شافيا للغليل بالنسبة للاخرين ، الا انه يبقى بالنسبة لنا المنهج الاصح والادق (47)» . فالهدف من الفلسفة ، لم يعد هو البحث فى المشاكل التقليدية التى كان يثيرها الفلاسفة التقليديون ، بل اصبح محصورا فى تحليل لغة العلوم والبحث فيها .

Digital © Al-Kalimah

7 ــ كل قضايا العلم الاختباري فرضيات أو عبـــارات احتمالية صدقها ويقينها مرتبط ومقترن باختبارنا لها . فالصدق والكذب قراران ذاتيـــان يتوصل اليهما العالـــم من خـــلال اختبره للاشياء وتجريبه عليها . وما دام تحقيق القضـــايـــا والتاكد منها مرتبطان بالزمان ومتعذراً من الناحيـــة العمليـــة ، فان العالم هو الذى يتخذ قرار الحكم على فرضية مـــا بـــأن لها من اليقين ما هو كافى رغم امكان تكذيـــب الوقائع فـــى المستقبل لذلك الفـــرض . فالتحقيق الكامل التام غير ممكن ، ونشداً لنـــا للتيسير العملى ، يتخذ العـــالم قرار الاعتقـــاد فى احتمـــال يقين الفـــرض .

هذه بصورة جد مختصرة القضايا العامة التى تلتقـــى عندها مختلف نزعـــات وتيـــارات الوضعية .

الهـــوامـــــش :

1 - Voir L. Vax - l'empirisme logique - p.U.F. 1970 p. 5 et sq.

2 ــ برترندراسل ــ مشاكل الفلسفة ــ ترجمة دكتور عبد العزيز البسام . مكتبة نهضة مصر ــ الطبعة الثانية ــ القاهرة ــ (دون تاريخ الطبع) ص 57

3 - Alferd Jules Ayer - Langage, vérité et logique Trad Joseph OHANA. Flammarion. 1956 p. 97.

4 - Ibidem.

5 - R. Carnap - Les fondements philosophiques de la physique. Trad. J. Luccioni et A. Soulez. A. Colin. 1973 p. 11

6 ــ برترندراسل ــ مرجع آنـــف ــ ص 75 .

7 - Karl Popper - La logique de la découverte scientifique - Trad Ph. Devaux. et N. Thyssen - Rutten Payot 1973 pp. 284-287.

8 - A.J. Ayer - p. 135

9 - R. Carnap. 196.

Digital © Al-Kalimah

10 راجع . زكى نجيب محمود ـ نحو فلسفة علمية ـ مكتبة الانجلو مصرية. الطبعة الاولى ـ 1958 ـ ص 196 وبعد .

11 - Carnap p. 14

12 - Voir - D. Hume - Enquête sur l'entendement humain Trad A. Leroy - Paris Aubier 1969 p. 106

13 - Leibniz - Nouveaux essais sur l'entendement humain. Trad. J. Brunschur.eg. Garnier - Flammarion 1966. p. 65.

14 ـ زكى نجيب محمود ـ ص 177 .

15 - Ayer - p. 99.

16 - Ayer - p. 125.

17 - Carnap. p. 23.

18 ـ برتراندراسل ـ مشاكل الفلسفة ـ ص 87.

19 - Carl G. Hempel - Eléments d'épistémologie - Trad. Bertrand Saint - Sernin - A. Colin - Paris 1970 p. 1

20 - R. Carnap. op. cit. p. 219

21 - Ibid. p. 19.

22 - J. Uumo - La pensée scientifique moderne Flammarion 1969 p. 90.

23 - Moritz Schlick - Travaux du 9e congrès internationale de philosophie. (Congrès Descartes), Tome 4. Hermann. 1937. p. 105 106.

24 - R. Carnap. - Le problème de la logique de la science — Science formelle et science du réel. Trad. Vouillemin - Hermann 1935 p. 12-13.

25 - A.J. Ayer - Langage, vérité et logique p. 118.

26 - R. Carnap. - Les fondements p. 106.

27 - L. Wittgenstein Tractatus logice - philosophicus. Trad P. Klossouski - Gallimard - 1972 (3,2) p. 58.

28 - Ibid. (3,13), p. 57

29 - Langage physicaliste.

Digital © Al-Kalimah

30 - L. Wittgenstein - op. cit. p., 82.

31 — زكى نجيب محمود — مرجع آنف — ص 81 .

32 - Moritz Schlick - Positivism and realism (in Logical Positivism). A.J. Ayer (editor). U.S.A. The free Press Illinois, 3e printing. 1960. p. 88.

33 - Tractatus (2,12) p. 51.

34 - Ayer, Langage(vérité et logique. p. 42.

35 - Ibidem.

36 - Ibid. p. 51.

37 - Ibid. p. 52.

38 - R. Carnap. The Elimination of Metaphysics. (in Logical Positivism, ed. by Ayer). p. 76.

اعتمد فى تلخيص المقالات الواردة فى الكتاب هذا ، المنشور من طرف آيــر على ما أورده وقدمه دكتور عزمى اسلام من عروض قيمة عنها فى كتابــه « فتجنشتين » دار المعـــارف بمصـــر ــ 1965 — ص 354 وبعد

39 - K. Popper - La logique de la découverte scientifique p. 37.

40 - Ibidem.

41 - Ibidem.

42 - Ibid. p. 318.

43 - Ibid. p. 319.

44 - Ibid. p./ 286.

45 - C. G. Hempel. Eléments d'épistémologie - Chap. 3.

46 - Leszek Kolakouski — La philosophie positive — Trad. du polonais - C. Brendel - Gonthier. 1976. pp. 21-22

47 - Wittgenstein - ('53) p. 176-177.

Digital © Al-Kalimah

حين يجري نهر عبر الرواية

اوجطى محمد

عن أزمة الاسلوب وكتابة المتشائم وعن ادب الاطفال وفلسفة الحياة عند مارك توين في رواية « مغامرات هاكلبري فين »

Digital © Al-Kalimah

Digital © Al-Kalimah

نعيش الامة العربية عموما ـ بما فى ذلك المغرب ـ فترة مخاض على الصعيد الادبى ، طالت حتى لنكاد نظنى انها ازمة مزمنة . ولقد دلت التجارب التى مررنا بها ان أزمتنا ازمة أسلوب اكثر منها ازمة محتوى ، اذ المحتوى هو نحن ، هو أنفسنا ، هو مجتمعنا ، وحياتنا بجميع وجوهها ، ولن تكون الا ما نفعله بها نحن . الا اننا لم نستطع بعد ان نكون لأنفسنا أسلوبا خاصا بنا نعالج به مسائلنا هاته ، وانما كنا دائما تابعين ومستعيرين لاساليب الآخرين فى كل الميادين بما فيها الادب ، ولطالما أدت بنا تلك الاساليب الى نتائج خاطئة ومتناقضة ومثيرة لنقاشات بيزنطية جنبية ، ولم نستطع بها ، طبعا ، لا أن نتعرف عن انفسنا ولا ان نصلح احوالنا . وانى لنا ذلك والمنطلق خاطىء ؟

يتضح هذا جليا لمن يدرس أدب مارك توين من جميع جوانبه ، ولو ان المقارنة ستبدو غريبة للقارىء من اول وهلة. والواقع ان مارك توين يعتبر من ابرز الادباء الامريكيين فى القرن التاسع عشر ، ولا زالت تجربته فى البحث عن اسلوب ادبى جديد مستمرة فى القرن العشرين حيث سار على نهجه ، كثير من الادباء المحدثين والمعاصرين الذين أدركوا صحة فكرته وعمق محاولته تلك فى ابتكار طريقة اصيلة للكتابة الادبية للتعبير عن الواقع والشخصية الامريكية الذين يتميزان عن الواقع والشخصية الاوروبية ، بهدف بلورة رؤيا الانسان الامريكى الى الحياة انطلاقا من بيئة ومجتمع العالم الجديد .

ومع هذا فكثير من الناس لا يحفظون لمارك توين سوى صورة باهتة لكاتب هازل يكتب بالعامية قصصا للاطفال غير جديرة بأن ترفعه الى مراتب العظماء فى عالم الادب ، اولائك الذين عبروا عن درامية الحياة فى احرج مواقفها فى أروع الصور

Digital © Al-Kalimah

الادبيـــة كما عبروا عن تمـــزق الانسان بين طموحاته السامية رواقـــع الحياة المـــر •

لذلك سنعمل على تقصي مـــدى صحة أو خطأ هذا الموقف في هذه النظـــرة العابـــرة ، حتي يتسنى لنا ان نقيـــم تجربـــة مارك توين ونبين ما له وما عليه ، ونوضح هفواته من جهـــــة ونقط القوة والعمق في اعمالـــه ، كل ذلك دون ان ننجرف وراء الاعجاب اللامشروط ، او مع التيـــار الذى يحكم على تلـــــك الاعمال جزافا بالسطحية والسذاجة • ومن الاسباب التى تحفزنا على ذلك ان بعض كتابـــات مـــارك توين تبقى الاعمال الهزليـــة الوحيـــدة تقريبا التى استطاعت ان تتحدى الزمن ، مع العلم أن روح الدعابـــة humour عرضة للتعبير اكثر من غيرها • واذا كان هذا مثارا للتساؤل عن السبب في ذلك ، فانه ايضا دليـــل على ان اعمـــال توين ليست هزلية فحسب • وسيتضح ذلـــك اذا وضعنا قيد التحليـــل احدى روايات هذا الكاتب على الاقل •

واذا كان لا بد من الاختيار ، فانني سأختار روايـــــة «مغامرات هاكلبرى فين» The Adventures of Huchleberry Finn للسببين اثنيـــن هما : أولا ، كونها اكثر روايـــات توين انتشارا والثانى، هو انها تشتمل على جميع المواضيع الفكرية التى عمل توين طوال حياته على معالجتها باسلوب متجدد طمـــوح •

ان البعد الاجتماعى في روايـــة «هكلبرى فين» من أهـــم الابعاد فيها • وذلك مما يجعل منها عملا ادبيـــا متكاملا يعالـــج كافـــة جوانب الحياة في فتـــرة معينة من تاريخ امريكـــا قـــد يستكنه منها القارىء حقائق عن الطبيعة البشرية وعن طبيعـــة الحياة عموما ، ويكتشف بالتالى اثـــرا ادبيـــا انسانيـــا • ان الفصل الذى يتعرض فيه ، على سبيل المثال ، لقصة الملك والدوق المزريـــة والمضحكة في آن واحد ، وكذلك الفصول الاخرى التـــى

Digital © Al-Kalimah

تتناول المستويات الاجتماعية فى القرى التى تترصع شاطىء الميسيسيبى الذى يحمل بطلى الرواية على مركبهما المتواضع نحو الجنوب ، يمكن كل ذلك ان يعتبر تفسيرا وتحليلا طبقيا للوضع الاجتماعى يلمح اليه توين (1) مبرزا ان هناك فئات من المحظوظين الذين يعيشون فى ترف كبير مستغلين فئات أخرى كادحة اما بالخداع ، او بالقهر . لكن تنقلب عليهم الدوائر احيانا ، عندما يدرك المستغلون حقيقة وضعيتهم . ان جيم ينتمى الى فئة العبيد المستغلين ، ونراه فارا من منطقة العبودية املا فى الوصول الى «عالم الحرية» فى الشمال الشرقى عبر نهر اوهايو . وتشاء الاقدار ان يجرفه التيار مع رفيقه هاكلبرى فين الى أكثر المناطق تعصبا للعبودية ، الى معقلها فى الجنوب الامريكى .

ويمكن اعتبار هذه الرواية من حيث الاسلوب تجربة ناجحة فى اثارة اهتمام القارىء بطريقة جديدة اصيلة . هى جعل الرواية على لسان طفل والنظرة الى احداثها وشخصياتها من منظار طفل . لكنها فى نفس الوقت تعالجها بشكل غير مباشر وفى لغة عامية مفهومة مبسطة . لقد كان توين فى الحقيقة ذكيا حين خاطب الناس بذلك الاسلوب وبتلك النبرة الفعالة التى تكشفه أكبر عدد من القراء دون ان تنفر أكثرهم جدية وثقافة . فكانت اعماله بذلك سهلة الفهم ولو انها فى حقيقة الامر فكرية وجادة . وقد يؤول استعمال توين للعامية فى اسلوب روايته كرفض للانجليزية الام الموروثة عن «المستعمر» الاسبق «انكلترا»، لكننى اعتقد انه ليس رد فعل عاطفى قومى امريكى بقدر ما هو بحث جاد عن اسلوب أصيل للادب فى بلد يبحث عن هويته .

ومن المميزات الخاصة بهذا الاسلوب ايضا ان الكاتب يجد مرونة كبيرة فى طريقة استعماله للغة حين يعبر عن المعانى

Digital © Al-Kalimah

الدقيقة فى الحياة اليومية ، او انطلاقا من احداث الحكاية اليومية وذلك لانه اكثر تلقائية . فهو انعكاس مباشر لا يكرر فى الذهن كما تكرر المادة الخام فى المصفاة (2)، وانما ينقل مباشرة بقدر الامكان ، والواقع ان المشاعر يمكن ايصالها او الايحاء بها او خلقها بالطريقة المباشرة احسن من الطريقة الذهنية المعقدة بسبب طبيعة الشعور الغير قابلة التحليل والتجزىء .

ومن جهة اخرى فان استعمال اللغة الانجليزية الام فى نظر توين عملية مصطنعة بالغة التصنع باعتبار ان اللغة عموما ، فى حد ذاتها ، نظام اصطناعى اتفق عليه مجتمع ما . لكن اللغة العامية اقل تصنعا بكثير مما يسمى باللغة الفصيحة او Standard لانها لغة عملية Fatical ولغة اساسية ، لا يضيع فيها الكاتب وراء متاهات قوانين اللغة وقواعد النحو المعقدة التى اذا كانت مفيدة فى نقل بعض المستويات الفكرية والحياتية ، فانها غامضة وغريبة فى احيان اخرى كثيرة وغير طبيعية .

انه اذا كانت انكلترا فى ذلك الوقت متشوقة لرؤية ادب امريكى حقيقى ذى نكهة جديدة تنم عن الروح الامريكية التى اكتسبها الانسان الاوربى من خلال احتكاكه ببيئة العالم الجديد، فان ناقدا كجون نيكول الاسكتلندى قد استاء فى كتابه «الادب الامريكى» . من «الاسلوب المتدهور فى بعض الدعابة الامريكية» وانتقد مارك توين بشدة واتهمه بأنه «أحد الذين عملوا اكثر من أى كاتب آخر على اسقاط الذوق الادبى للناطقين بالانجليزية» (2) .

وليس من شك فى أن العنصر الهزلى الماجن فى كتاب مثل A Connecticut Yankee يضعف الابعاد الجادة فيه ، لكن ذالك لا يبرر الحكم على اعمال توين كلها بالتفاهة كما فعل نيكول .

Digital © Al-Kalimah

لان على من يريد ان يعالج موضوع توين الفكاهى ان يتناول فنه بتفصيل وتعمق ، نظرا لكون اسلوبه مبنيا على تورية Pun ذات مستويات رمزية عالية . (ولا اظن نيكول قد فعل) زيادة على ان الهزل فى كتابة توين ليس مجانيا . وانما تعبير عن موقف فلسفى صلب يصمب التسفيه به وابطاله . نقد عمل توين على رصد جهوده لاجل الوصول الى هدفين اثنين : اولهما ان تكون روايته ممتعة ، والثانى ان تكون منيرة للاذهان حول حقيقة الحياة وحقيقة الكون . ففيما يتعلق بالناحية الاولى نلاحظ اثر عمله فى ميدان الصحافة فى اسلوبه الملىء بكل انواع المبالغة والتكرار العمد ، وكثيرا ما يلجاء توين الى حيل القدح وتهزيل ما هو جاد ، المعهودة فى الميدان الصحفى (4). لكنه من الضرورى معرفة واقع ذلك الهزل ومجالاته وكذا لحظات فشله الغريبة ايضا .

اعتقد أن اهم اسباب ذلك الفشل هو تشاؤم توين العميق، وليس هذا بغريب لان الهزل فى الحقيقة قابل للائتلاف مع الحزن، فالهموم تضحك احيانا كما يقول المثل المغربى ، ويتجلى ذلك ايضا فى الاغانى الزنجية كما يلاحظ الناقد Johu Nickol فهى مرحة وحزينة معا . والهزل قابل للائتلاف مع الغضب والكراهية ايضا كما يمكن ملاحظته فى سخرية جوناثان سويفت الايرلندى .

الا أنه من الخطا أن نعمم ، ونعتبر توين عابثا ونتجاهل تعبيره الناجح وتركيب جمله الذكى وننسى انه غالبا ما يكون جادا فى العمق . فلقد ادرك توين وعانى قسوة الحياة وعبثيتها من خلال تجربته الخاصة ، فرأى أن الانسان مسؤول ايضا على كثير من الالام والمحن التى يقاسى ويشتكى منها ، وهو لا يرى من سبب وراء ذلك سوى حماقة الانسان نفسه . وتلك الحماقة

Digital © Al-Kalimah

هى التى تثير غضب توين على الانسان فى ادبه ، بيد أنــه يحتاج الى أن يكــون موقفه هذا مقنعا حتى يقبلــه القراء وممتعا حتى يقبلوا عليــه . لكن اعمال تويــن تظهر احيانا نوعا من عـــدم التوازن الغريب والسير وراء ذلك ، فى نظرى ، ناتج عــــن الاختلاف الكبير ، والبون الشاسع بين الدافع والوسيلة ، أى بين موقف الكاتب الفلسفى والاسلوب الذى اختاره ، وبين ما يقولــه ومـــا يقصـــده .

واذا كان الدارسون متفقين على ان رواية هاكلبرى فيــن تجربة اصيلة من حيث الاسلوب ، فى ميدان التبليغ الى القارىء والتاثير فيه بطريقة جديدة ، فانهم يختلفون حول مسالة اعتبـــار هذه الرواية من ادب الاطفال ، وهل يمكن اعتبار توين اول من حاول كتابة ادب خاص بالاطفال ، واعتباره بالتالى من اوائــل الذين اهتموا بهذا الكائن الذى كثيرا ما اخطا الناس فى فهمــــه ومعاملته طوال قرون ، اعتقد ان هذه التساؤلات وهذه المواضيع غير ذات اهمية نظرا لانه من الصعب التمييز بين ادب الاطفال وادب الراشدين من حيث الموضوع . اذ ما هى الامور التــــى تستوجب ان تقــال للاطفال او تلقن لهم ، وما هى الامـــــور « الارقى » و « الاهم » التى تستحق أن تنال اهتمام للراشدين ؟ هناك موضوع واحد للادب هو الحياة وكيف يجب ان نحياها ، وما أكثر الراشدين الذين لا يعرفون اكثر من المبتدئين عن الحياة والحقيقة . ان الطفل رغم صغر سنه انسان كبقية الراشديــن يدرك ما يدور فى محيطه . وهو اشد تعطشا من اى كان لمعرفة الحقيقة . وليت الكبار يحافظون على حب المعرفة وعلى الفضول الذى كانو يتميزون به فى بداية حياتهم اذن لتفادوا كثيرا مـــن الاخطاء التى وقعت فيها الاجيال السابقة . وبالاضافة الى هذا، فان تقسيم الادب الى ادب للاطفال وادب للكبار سيؤدى بنا الى

Digital © Al-Kalimah

معيارية وقيمية لا فائدة من ورائها . ان نظرتنا الى الطفل يجب أن تتغير ، لانه ليس ذلك الكائن الناقص كما يعتقد خطأ . فهو انسان ذو ذاتية كاملة رغم حداثة سنه . وما التطور الزمني لعمر الانسان الا نضج بيولوجي وعقلي ، بيد أن للاحساس — وهو الاهم — يظل هو هو ، وربما كان ذلك الاحساس في الصبا اقوى منه في فترة النضج . وقد قال وردزوث في هذا الصدد بأن الطفل ابو الانسان نظرا لدقة وصفاء الاحساس في فترة الطفولة . اما الانسان الناضج فان احساسه يتبلد اكثر بسبب الوسائل الحضارية المادية التي تبعده اكثر فأكثر من انسانيته الحقة التي عرفها في فترة طفولته . من هذا المنظار تعالج هذه الرواية جوانب متعددة من الظلم الاجتماعي . فهي ادانة للحياة الاجتماعية المليئة بالشرور وبالمظالم ، وتتجلى نزعة الكاتب الى تفضيل الحياة في احضان الطبيعة ، وخضم نهر الميسيسبي الهائل بدلا من تلك القرى حيث الضغائن والاحقاد ، وحيث الاستغلال والاحتيال ، وحيث يستعبد الانسان اخاه الانسان ، وحيث الناس في سباق لاهث وراء المادة ووراء الثراء .

ان الكاتب يضع يده على الداء بابرازه عدم التوازن الذي يعيشه المجتمع في الجنوب الغربي لامريكا وبتعبيره عن خيبة الامل الكبيرة لكل اولئك المضطهدين من كل ارجاء اوربا والعالم ، الذين قصدوا امريكا ، تلك البلد العذراء ، املا في انشاء دولة يعيش فيها الانسان حرا كريما دون اكراه عقائدي او سياسي او غيره ، لكن هذا المطمح لم يتحقق بل انتقلت نفس الاحقاد وانتقل نفس الجشع حملهما الانسان معه . ولعل هذه الحقيقة تفسر تشاؤم مارك توين العميق حول الوضع البشري ، وضع الانسان الذي يظل هو هو ، بمشاكله

Digital © Al-Kalimah
وهمومه ولا ينفعه تغيير مكانه . وما محاولاته لانشاء مدينة فاضلة الا ضربا من العبث الغير المجدى .

قد يتساءل المرء لماذا يستمر توين فى توجيه انتقاده اللاذع الى الانسان ، فى وقت يجزم هو بنقصانه وبحتمية فشله وضياعه فلا يرحمه من نقده اللاذع والسخرية منه . وهنا يبرز السؤال لماذا يكتب المتشائم مادام من لا يرتجى فى الحياة والبشر خيرا يتناقض مع نفسه عندما يكتب عن هذه الحياة وهذا الانسان . لكن الحقيقة هى انه ليس هناك كاتب متشائم بصفة مطلقة . لان الامل جزء من كياننا ، شئنا ام ابينا. وقد لا تخلو كتابات صامويل بيكيت الايرلندى ـ اكثر الكتاب تشاؤما من قدر ولو ضئيل من الامل والثقة فى قدرة الانسان على التغير والتحسن . فنقده دليل على غيرته على الحياة لانه يحس فى قراره نفسه بايجابية الحياة ، وكل ما هنالك هو انه يضيق درعا ببعض الحماقات التى يرتكبها الانسان وبعض القسوة التى فى الطبيعة ايضا . فينفجر ذلك انفعالا عاطفيا ابداعيا على قلمه . ويمكننا تفسير بعض تشاؤم توين على هذا النحو، الا انه على كل حال لا يكتب تناقضا مع نفسه وانما عن وعى تام ، بهدف الرد على من يزعمون بعكس نظريته . فهو يسخر ممن يرون الحياة بمنظار وردى ويستمرون فى تفاؤل مفرط متعامين عن الشرور التى تلازم الانسان اينما حل وارتحل ، ويأبون الاعتراف بعبثية الحياة ، احيانا على الاقل .

ان توين باشارته لمشاكل المجتمع لا يقصد ان يعطى صورة حالكة تماما للحياة . وانما هدفه هو ان يظهر الجوانب السلبية من ناحية وكذلك الجوانب الايجابية من ناحية ثانية . وهذا يعنى ان رفض توين لكثير من القيم والاوضاع الاجتماعية باعتبار انها يسودها الجشع والنفاق والقسوة ، فذلك ليس رفضا

Digital © Al-Kalimah

مطلقا لكل القيم ، لان الكاتب يدعونا لقيم اخرى تكمن فى الطبيعة التى هى اصل الحياه وهو يبرز ذلك عندما يقابل بين الروحانية الرفيعة التى فى الطبيعة وبين المدنية الوضيعة التى تتمثل فى الحضارة ، والحياه الحضرية حيث الجرى وراء الماديات لامنته ، وحيث التجاهل التام لكل القيم ولو ادى ذلك الى انتهاك حقوق الانسان ، بل اذلاله واستعباده .

تجرى مغامرات الرواية فى مجالين مختلفين : على النهر وفوق اليابسة ، وواضح ان الكاتب يرمى من وراء ذلك الى موازاة هاتين الارضيتين لابراز المعانى التى يراد من القارىء ان يستنتجها . الا ان النهر يمكن اعتباره فى حد ذاته موضوعا قائما بنفسه ايضا . حيث انه يرمز الى اشياء هامة فى اطار الفكرة العامة التى يصدها الكاتب كما سبق الذكر ، فهو يمثل احدى القيم التى يدعو اليها ويقترحها كبديل لقيم المجتمع الرأسمالى المادى المتردى الاوضاع . انه الملاذ الاوحد لبطلى القصة الفارين من كابوس الحضارة ، «فهيك» يفر من طريقة العيش التى ، يريد أن يفرضها عليه أبوه ، وكذا من الارملة دوكلاس التى تريد ان تفرض عليه سلوكا معينا ، ان النهر بذلك يتحول الى طريق للحرية ، وتجتمع فيه ، العديد من الاوصاف التى تجعل منه احدى ابرز قيم الرواية ، فهو عظيم، بل يبعث على الانبهار والجلال وهو متناسق مع باقى الطبيعة التى على شاطئيه من سهول ممتدة واحراش خضراء . على عكس الفوضى ، او النظام الزائف الذى يسود الحياة الاجتماعية . ان الميسيسيبى جميل اسمى معانى الجمال بما يجتمع فيه من عظمة وتناسق معا .

وليست هذه المزايا الوحيدة التى تجعل منه احدى قيم الرواية الاساسية ، بل هناك ايضا كونه وسيلة للمواصلات

Digital © Al-Kalimah
بين شمال وجنوب ذلك البلد العملاق الولايات المتحدة الامريكية فى وقت لم تكن القاطارات قد غطت سككها كافة ارجاء العالم الجديد بعد •

ثم هناك دوره كملجأ وملاذ لكل مضطهد فار من عنت المجتمع وقسوته ، ودوره كمصدر غذاء بالنسبة لبطلى القصة، وهذا الدور لا يقتصر عليهما طبعا ، لان المسيسيبى يغدق الخصب والنماء على مدى آلاف الاميال من سهول ست ولايات • فهو اذن شبيه فى هذه الروايه بذلك النهر العظيم الاخر : النيل الذى هو شريان الحياة بالنسبه لمصر ، والذى لولاه ما كانت مصر • فلا غرو اذا جعله توين رمزا للحياة•

وهناك مستويات كثيرة لهذا الرمز ، فهو من جهة بديل المنزل الذى غادره كلا البطلين ، والمقصود بالمنزل ذلك المكان الذى يستشعر فيه الانسان الحرية والامن • فاذا كان جيم قد افتقد مثلا هذا الشعور فى بيت ((اسياده)) ، واذا كان ((هيك)) قد افتقده فى بيت ابيه العربيد العنيف ، فان الميسيسيبى بامنه وهدوءه بمثابة المنزل ، الـ home ، المنشود ، بقدر ما هو أيضا عنوان الصداقة العميقة التى تربط كلا البطلين ، صداقة السراء والضراء •

لكن النهر ليس دائم الهدوء ، فهو تنتابه العواصف والزوابع كما نجد فى الفصل التاسع حيث ترحف تلك العاصفة الهوجاء على جزرة جاكسون النهرية وما حولها (5)• لكننا نلاحظ من خلال الطريقة التي يصف لنا هيك بها هذه العاصفة • انها على الرغم من هولها لا تبعث فيه ، وهو الطفل اليافع ، هلعا او دهشة ، بل اننا نلمس من خلال ذلك الوصف ، انه ، على العكس من ذلك ، يعيش تجربة جديدة مثيرة باكتشافه قوة طبيعة لم يرها من قبل •

Digital © Al-Kalimah

واذا كان احد لا يستطيع انكـــار ان العواصف مهدمــــــة ومضرة ومغرقة بقدر ما هى رائعـــه وهائلـــة ، فان الملاحـــظ ان ((هيك)) يفضل الاهتمام اكثر بجانبها الايجابى المثير . انها بالتالى مسألة اختيار واضح : اختيار الحياة دون الفناء ، لكـــن الكاتـــب لا يريـــد ان يقـــدم لنا هيك فى صورة مثالى مفرط التفاؤل ، وانما يعمل على ان يظهر مدى نضج وعمق الرؤية التى يتمتع بها هـــذا الطفل ، والتى ينظر بها الى الحياة . فهو يدرك وهمية القيــــم والشعارات المروج لها فى المجتمع عندما يخيب امله وامل رفيقه فى الاخير ، عند ما يتبخـــر احلام الخلاص من العبودية بالنسبة لجيم عند الوصول الى نيو او رلينس .

ويكتسى النهر اهمية هيكلية بالغة بالنسبة للرواية لا تقـــل عن اهميته الرمزية ، بحيث انه يشكل رابطة وجسرا بين مختلف فصول الرواية ، ومختلف المغامرات التى تجرى على اليابســـة . اذ من الصعب الربط بينها وهى جد متباينة . لذلك فالمركب العائم على مياه النهر بمثابة كاميرا متحركة تمكننا من تتبع احداث القصة والانتقـــال من مشهد الى مشهد ، كما انه يمكن البطلين مــــــن المشاركة فى ، او مشاهدة ، كل ما يريـــد الكاتب ان يعرضه مـــن مغامرات ، بقدر ما يساعده هو على رسم شخصيات متباينة وذات طبائع ومهن مختلفة . وكمثال على هذه التقنية تناول الكاتب فـــى الفصل اثنانى عشر لاشخاص عنيفين جشعين ومجرمين لم يكن له ان يتعرض للحديث عنهم لو لم تكن هناك وسيلة ورابطة النهر (6).

وقد اختار الكاتب شخوصه كنماذج لكافة المستويـــــــــات الاجتماعية ، بهدف اعطاء صورة متكاملة عن المجتمع الذى يريـــد ان يضعه تحت المجهر واظهار عيوبه . فجيم كما سبق القول ، يمثل طبقـــة العبيـــد المضطهدة . والد هيك يمثل نموذج الامريكـــــى الفقير ، وكذلك الانسان المنحط الذى لا تهمه مشاكل مجتمعه ولا

Digital © Al-Kalimah
يذكرها الا حين يكون مخمورا ، والذى تجتمع فيه مع ذلك فى عقليه ارسابت المفاهيم الاجتماعية الخاطئة . فهو عنصرى كما نرى ذلك فى الفصل السادس حيث يعبر عن موقف رافض لاجراءات الحكومة بصدد العبودية ، حين تقرر منح الحرية للعبيـد فى عشر ولايـات. بينما بقيت احد عشر ولايـة اخرى مبيحة للعبودية .

واذا كان والد ((هيك)) يعتقد بالعبودية من باب ((هذا مـا وجدنا عليه آباءنا)) ، فان نظرة ((هيك)) نفسه الى هذه البـؤرة الاجتماعية جد مضطربه ، فهو فى وضع حرج ومتناقض ، اى بيـن نارين ، فهناك صداقته الحميمة مع جيم من جهة ، الذى يرفـض العبودية الظالمة ، وهناك ((ضميره)) ، على حد قوله ، المتشبـع ببعض المفاهيم الاجتماعية الخاطئة التى تأصلت فى وجدانه ورسخت جدورها ، فاصبح من الصعب عليه مناقشتها ، وان كان يحـس فى نفس الوقت ان شيئا فى اعماقه لا يقبلها . ويتجلى هذا الموقف الحرج فى الفصل السادس عشر حيث يتردد ((هيك)) فى اتخاذ قرار حاسـم (7) .

وتثير الرواية مشاكل اجتماعية واحداثا غريبة اخرى تكتسى فى بعض الاحيان صبغة دراميـة تزيد فى غرابتها ، ولربما عدهـا البعض من هفوات الرواية ، كما فى قضية الثأر الدموى مثلا بين عائلتى كرانجفورد وعائلة اخرى فى الفصل السابع عشر ، لكنها فى الواقع تعبير عنه ، وتنديد بالاحقاد والعصبيات التى كثيرا ما دفعت الانسان فى اماكن مختلفة من العالم ، وفى فترات متعددة من التاريخ ، لارتكاب حماقات لم يتكهن هو قط بعواقبها وويلاتها. ومما لا شك فيه ان بعض الفصول يقصد منها امتـاع القارىء وبالدرجة الاولى ، اذ تتخللها مبالغات كثيرة فى حيل ((هيك)) ، بل هنـاك حوادث خيالية بعيـدة عن الواقع لا أرى لها من مبرر سـوى الفكاهـة المحـض .

Digital © Al-Kalimah

وفى الفصل الواحد والعشرين نشاهد اهل قرية ليسوا كاهل باقى القرى ، يسود عيشهم التسكع والخمول ، والكاتب يعمل على ابراز عقليتهم وعقلية غيرهم باعطاء المميزات التى تتصل بنظرتهم الى الحيــاة ، فغالبية العبيــد مثلا ، وغيــرهم من البيــض الفقــراء يؤمنــون بالخرافه ويلجؤون الى خيالهم المذعــور لتفسير الكوارث الطبيعيــه • ولعل العزله والفراغ اللذين تفرضهما شساعة المنطقه جغرافيا هو الذى يدفعهم الى تبول التفسيرات الخرافية كما يتجلى ذلك فى بعض فصــــول الروايــة •

من الواضح اذن ان رحلة ((هيك)) وجيم نقد مباشـــــر احيانا • وغير مباشر احيانا آخرى ، للمجتمع ألذى يفران منه، والرواية تشتمل بذلك على فصول حالكة حين تتناول بعـــض المشاهد القــذرة من السلوك الانسانى ، لكنها تشتمل أيضــا على فصول طويلة مشرقه تصف جمال النهر ، واندماج البطليــن الرائع مع الطبيعــة (9) • بيد ان السؤال المطــروح هو هل يمكن اعتبار نظرة توين هاته نزعة هروبية تحبــذ الفرار من شرور المجتمع وارانه خوفا وانهزاما أمام مشاكله ، واللجوء الى الطبيعــة ؟ الواقع انه لا يجب النظر الى الامــور بهــذه الطريقة المبسطــة ، وانما يتحتم علينــا وضع المشكلة فــى اطارها الصحيح باعتبــار تيــن يكتب عن منطقتيــن متباينتين يقارن بينهما بعين فاحصة واعيــة ، ومحايــدة كذلك • فامريكا كانــت الى وقت قريــب عالما غفلا وطبيعة عــذراء جاءها بعض الاوربيين فاريــن من الفقر والطغيان فهو يلاحظ انهــم بدأوا باحتــلال المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية ، وهم لم يستقــروا هناك استقرار الخائف اذا ائتمن والجائع اذا ضمن لقمة العيــش ، لكن جحافلهم اتجهت نحو الغرب ، فى حملات

Digital © Al-Kalimah
لا يشبهها فى التاريخ الا حملات المغـول على آسيا الغربية ، انطلقوا نحو الغرب يقتلعون غـابانه ويحرثـون سهولـه ، منقبيـن عن المعدن الاصفر الذى يسيل عليه لعابهم ، مشيدين قراهم ومدنهم ، وحاملين معهم بذور حضارتهم المبنيـة علـى الجشع (10)• ولم يكن هناك من شـىء يوقـف زحفهـم الجهنمى وراء البحث عن معـادن الذهب والبحـث عن فراء الحيوانـات ، وكانوا يشنون غاراتهم على قبائل الهنود الحمر الآمنـة التى عاشت فى أمريكـا منذ مئـات السنين فى انسجام تـام مع الطبيعـة •

لكن تويـن لا يقصد فقط التركيز على هذا الاثـر السيء الذى تسبب فيه الانسان الاوربى فوق القـارة الجديدة • بل يريد ايضـا ان يلفت الانتباه الى شىء ايجابى ، هو تاثـر هذا الانسـان بحياة الهنود الحمر • فاذا كـان قد اتـاهـم ــ ولو بطريقة غير مباشـرة ــ بكثير من مقومات الحضارة ، فقد اعطوه شيئا اثمـن من حضارته ، هو الاعتماد على النفس• لقـد كانت الحياة جد صعبة آنذاك ، ولم يكن للفاتحيـن الاوائـل ان يبقوا على قيد الحياة لو لم يطوروا الاعتماد على النفـس الى المستوى المطلوب • وكل مغامـرات ((هيـك)) تشهـد بمدى اعتماده على نفسه وعلى قدراته الخاصـة عقلية كانـت او عضليـة ولو انه طفل لم يشب عن الطـوق بعد (11)• وكان من نتائـج اتصال الانسان الابيـض بالغرب الامريكى انغماره فى الطبيعـة ونمو كراهيته للقانون والتقاليد• وقد عبـرت كونستانس رورك ، الناقدة المعروفـة عن ذلـك حين قالت عن رجل ((الحد)) : انه اذا جاء غازيا للهنود الحمر فان الهنـدى قد غزاه بدوره ، ايضا ، اذ حوله الى همجـى شبيه بنفسه، نازع اجلود الراس، وفريسة للمخـاوف الخرافيـة (12) •

Digital © Al-Kalimah

يمكن القول اذن بان توين يقارن بين حضارة اوربا التى اتى بها المستوطنون الاوائل لامريكا وبين نمط الحياة الطبيعية الذى كان الهنود الحمر يعيشون عليه من قبل. وبديهى أن توين لا يفضل نمطا دون الآخر ناسيا مساوئه . لكنه يريد ان يظهر الحقيقة للذين يجهلون عيوب نمط عيشهم واخطاءهم ، ولعله يقترح ضمنيا حلا وسطا ، ونمطا يخلو من احقاد وماديات وعنصرية الحضارة الاوربية من جهة ويخلو من همجية وتاخر طريقة عيش الهنود الحمر . وهنك نوع من الازدواجيه التى يتميز بها موقف توين من الحياة . فهو لا ينكر ان فى الكون تناسقا كبيرا — وهذا يعنى الكثير ، ويمكن تاويله — لكنه لا يخفى امتعاضه من ذلك التناسق نفسه كانما هو يرى فى ذلك التناسق خديعة اريدها ايقاع الانسان فى فخ . وبهذا يكون توين متحفظا وغير مساير لذلك التيار المتفائل الذى ساد — ولا يزال — الادب والفكر الامريكيين ابتداءا من ((امرسون)) حتى ((ويتمن))(13) وهو يؤكد ضمنيا ان ما يسمى بالارادة الحرة للانسان ما هى الاوهم ، وانه بذلك (كما يتجلى فى كتب اخرى له (14) يبعث على الاعتقاد بأن العالم لا قيم له ، بل لا حقيقة له ، حيث ان البشرية بقيت مخدولة لانها انخدعت بوهم التناسق الذى يبدو فى العالم . وبالاضافة الى هذا فتوين جبرى فى نظرته الى الانسان ، لكنه لا يكف عن توبيخ الانسان . وان دل هذا على شىء فانما يدل على أن توين ينسب جزءا من المسؤولية على آلام البشرية الى القدر والجزء الآخر الى الانسان نفسه ، وهذا يعنى أن الانسان بامكانه ان يتحدى بعض احكام الاقدار . الا ان اشد ما يثير حنق توين وسخريته المرة هو موقف بعض الكتاب المتفائلين ولذلك

Digital © Al-Kalimah

فهو يعمل على اظهار مدى تفاهة وحماقة مواقفهم التى ان كان لها اثــر فانما هو تعميق اوهام الانسانية والابقاء عليها٠

وهذه الازدواجية التى نلاحظها فى موقفه الفلسفى نلاحظها ايضا فى اعمالــه على مستوى الاسلوب وتقنيــة الكتابــة الروائية كما فى الشخصيات والحبكة (15)٠ وهناك ازدواجيــة اخرى هى ازدواجية الجد والهزل ٠ فهناك الدعابة البريئة ، ان صح التعبير ، وهنــاك السخرية اللاذعة التى تبلغ درجــة التقزز احيانــا من جهة اخرى ٠ ولعل هذا يذكرنا بأفــلام شارلى شابلن ذات الحدين فهى ضاحكة ممتعة من جهة لكنهــا مــرة من جهــة اخرى ويمكن للمشاهــد الاكتفاء بجانب دون الآخــر فى بعض الاحيان ٠

لكن المهم الذى يجعل من رواية تويــن عملا عظيما هــو انها كتبت بحرارة ودقة عن الحياة التى عرفها هو ، حياة صباه فى مدينــة النهر وحياته على النهــر ، ذلك النهر الذى لم يكن قناة آسنــة موحلة كما بدا ((للديكنس)) عند ما زار امريكا ، وانما كان الوجود كله (16)٠ فمن الضرورى ان يعرفه الانسان حق المعرفة حتى يقــدر قيمته الحقيقية ٠ ان المسيسبى رمز لرحلة الانســان الشاقة ، الحلوة المــرة فى آن واحد ، وان رواية ((هاكلبرى فين)) تبلغ درجة عالية من الكمال الادبى بتصويرها لرحلة لا تنسى لطفل من ((الحدود)) (يعنى الحدود بين الحضــارة الزاحفة والطبيعة العذراء) ٠ ومن دلائل براعة تويــن ايضــا انه على الرغم من فلسفته الجبرية نسبيا ، فان شخوصه ، وهم عادة عاديون ، ليســوا دمى مسيرة لا حياة فيها ٠ وانما هم احيــاء ، نكاد نلمسهم ، وبعضهم اشرار حقيقيــون وقعوا فى قذارة وعنف واحقاد المدن الصغيرة

Digital © Al-Kalimah

ان قيمة هذه الرواية تتجلى فى ان «هليك فين» يبقى انسانا حرا طبيعيا لم يتاقلم مع المحيط الحضارى الذى يطارده ويحاصره • بل اكثر من ذلك فهو يستطيع تخليص جيم من العبودية وليدة الحضارة • وان رفض هيك للحضارة المتعفنة — وهو تعبير عن رفض توين — ليس ذلك الرفض البات الجارف الذى ينبذ المدينة والمجتمع ويدعو الى الزهو والاعتكاف فى الطبيعة على النحو الذى اختاره « ثور » الكاتب الامريكى الذى قضى زهاء سنتين معتمداً على نفسه فى غابة قرب بحيرة «والدن» لكى يبرهن على ان الانسان يستطيع ان يعيش مستقلا بذاته ، وبمجهوده الفردى فقط (17).

وكيفما كان الحال ، وبصرف النظر عن الابعاد الفلسفية والاجتماعية لرواية «هاكلبرى فين» يمكن القول ، بعد هذه الاطلالة العامة على تجربة توين الادبية ، ان هذا الاديب لم يكن مهرجا يكتب قصصا للاطفال باللهجة العامية ، كما يزعم البعض وكما شجعهم هو نفسه على ذلك بالصاقه تلك الملاحظة فى بداية قصته ، وانما كان واحداً من الرواد الاوائل الذين صنعوا لامريكا أسلوبا أدبيا خاصا بها ، والذين ادركو مبكرا ان لن يكون لها ادب بدونه • ولعلنا ، نحن المغاربة خصوصا ، والعرب عموما نعيش نفس الوضعية التى عاشها اولائك ، وحرى بنا ان نستخرج من تجربتهم عبرة لنا قابلة لان نستفيد منها ، مهما كانت بعيدة عنا ، ونحن نبحث عن هويتنا الادبية • وستنفتح امامنا بالتاكيد مجالات واسعة اذا عرفنا كيف نحل مشكلة اللغة ومشكلة الاسلوب • ولن يمكننا ان نساهم فى الادب الانسانى ما دمنا نستعمل لغة غيرنا واسلوب غيرنا ، بل حتى لغة واسلوبا استعملناه فى الماضى لكنه لا يتجاوب مع معطيات بيئتنا الحالية وعصرنا •

Digital © Al-Kalimah

الهـوامــــش :

1 ـ أمر توين ناشره بان يكتب على الاصفحة الاولى من قصته ملاحظة مفادها « ان الاشخاص الذين يحاولون البحث عن دافع وراء هذه لقصة سيعدمون ، ولذين يحاولون لعثور فيها على موعظة سينفون ولذين يحاولون ان يجدوا فيها حبكة سيرمون بالرصاص ». كانما يريد أن يقول بان قصته هزلية لاغير . لكن قصته تقول عكس ذالك اذا امعن فيها النظر . لذلك قــررت الاخــذ بقولــة D.H Laurancu في النقد حين نصح ب « تصديق ألقصة وعدم الثقــة فى القاص » .

2 ـ يتحدث هيك قائلا فى ص 76 عن نفسه وعن جيم حيث ادركـا ان فى السفينة التى ظناها فارغة ، قتلة ومجرمين : « طيب ، حبست انفاسى حتى عدت أختنق ـ سجين فى السفينة مع عصابة كتلك . لكن لم يكن هناك وقت للمشــاعر والاحــاسيس ، كان علينا ان نجد القارب حالا ، وان نجــده لانفسنــا ». ص 76.

3 ـ انظر كتــابه The American Literature (1885)

4 ـ مارتيــن كـونليــف The American Literature

5 ـ « وسرعان ما اظلــم الجو وبدأت السمــاء ترعد وتبرق بشكل افزع الطيور ، ثم بــدأ المطر يهطل بقــوة ، ولم أر ريحــا تهب اكثر من التــى كانت تعصف آنذاك ، كان ذلك واحــدا من تلك الزوابع الصيفية المعهودة . ويدلهم الجــو حتى ليبــدو الخارج ازرق دكنا ورائعا . ويتساقط المطــر بكثافة حتى أن الاشجار القريبة قليلا لتبدو معتمة وكانها مغطاة بنسيج مــن عنكبوت . وقد تعصــف كتلة من ريح هنا او هناك حتى لتميل الاشجار ، ويظهر جــانب الاوراق الاسفل ذو اللون الباهت . ثم ينفخ ريح اقوى بعد ذلك فيجعل الاغصان ترقص أذرعتها رقصا عشوائيا كانما أصيبت بالجنون . ثــم عندما يصبح الجو أكثر قتــامــة وزرقة . بلمح البصر كانت الدنيا فى اشراق البهجة . فتتراءى لك بعض رؤوس الاشجار وهى تنتفض بعنف فى العاصفة ، عشرت الامتار أكثر ممــا كنت تستطيع رؤيته من قبل . ثم تسود الدنيا مرة أخرى سواد الذنوب فى ثانية واحدة ، ثــم تسمع الرعد مدويا فى فرقعة مذهلة، يمضــى بعدهــا مغمغمــا مدمدمــا على طول السمــاء تجاه الجهة السفلى من العــالم مثل براميل فارغة ، مدحرجة وهاوية من على الادراج ـ حين تكون الادراج طــويلــة . وتقفــز البراميــل كثيــر ـ كمــا نعلــم .(ص 55) لاحظ خيال هيك الساذج ، وروعة تصويره المعبر عن احاسيسه الصادقة .

6 ـ لنستمع تهديد احدهم ، لاخر قائلا : « ذلك كلب ياجيم تورنر لقد تصرفت

Digital © Al-Kalimah

بنفس الشكل مرة أخرى من قبل . انت تريد دائما أن تنال أكثر من حصتك من الغنيمة . وكنت تناله دائما . لانك كنت تهدد بانك ستشى بنا ان لم تحصل عليه ، لكنك هذه المرة قلتها مرة واحدة أكثر من اللازم ، انك احقر وانذل كلب في هذا البلد ..»

7 ــ وقف هيك مترددا ما اذا كان سيكتب رسالة الى السيدة واتسون يخبرها فيها بمكان عبدها الفار جيم . وكتبها فعلا ، فبقى حائرا يقول مع نفسه : « وكم كان معى طيبا دائما . فكان ممتنا لى عندما انقذته ، وقلت للرجال أن فيه جداما . وقال باننى احسن صديق له في العالم ، والاوحد الان . ثم التفت فوقع نظرى على الرسالة التى كتبت . اخذتها ، ووضعتها في يدى كانت ترتعش لانه كان على أن اقرر ، الى الابد ، بين شيئين . عرفت ذلك وفكرت لحظة حبيس الانفاس ، ثم قلت في نفسى :

« طيب اذن ، ساذهب الجحيم » ثم مزقتها .

لقد كانت تلك أفكارا سودا وكلمات مذهلة . لكنها قيلت ، وتركتها تبقى كذلك ولم أفكر بعد ذلك التغيير .»

8 ــ « وقد شرب حتى الثمالة في القرية ، وامتد في الشارع طوال الليل ، وقد كان منظرا يرى ، وقد يحسبه الانسان آدم ــ كان كله وحلا . انه عندما يبدأ تأثير الخمر فيه ، كثيرا ما كان يدور حديثه حول الحكومة . وقد قال هذه المرة : .... وهل تسمى هذه حكومة ! كيف ، انظر كيف يسمح قانونها بأن يحرم رجل من ابنه ــ ابنه الذى تعب على تربيته .».... ثم ينتقل الى الحديث عن الزنوج الذين حصلوا على حق التصويت في الانتخاب ، فقال متعجبا من كون احدهم أصبح أستاذا في الجامعة : « وماذا تظنون ». لقد قالوا انه أستاذ في الجامعة ويستطيع الحديث بكل أنواع اللغات ، ويعرف كل شىء وليس ذلك الالعن . لقد قالوا بانه يستطيع أن يشارك في الانتخابات في ولايته .... لن انتخب أنا أبدا .

9 ــ انظر الهامش رقم 5 .
10 ــ Abasic Histcry of United States ، من تأليف شارلز بيرد .

الفصل 12 .

11 ــ « طيب فكرته هى هاته ، سنبحث هنا ونجمع الاشياء التى نكون قد نسيناها في مركبة القيادة . وسنجدف حتى الشاطىء ثم نخفى ذلك . ثم ننتظر. والان أؤكد لك لن يكون ذلك في أزيد من ساعتين قبل أن تتحطم هذه السفينة وتنحدر مع التيار . هل تفهم ؟ سيغرق هو ، ولن يكون أحد مسؤول عن غرقه الا نفسه . أعتقد أن ذلك أفضل من قتله . وأنا لا احب قتل انسان مادام بالامكان تجنب ذلك . أن ذلك مناف للعقل والاخلاق .

Digital © Al-Kalimah

12 ــ كنستانس رورك : The American spirit (ص 25).

13 ــ أنظر كتــاب امرسون الطبيعة «Nature»
وديوان ويتمــن : «Leaves of Grass»

14 - The Mysterlons ranger

15 ــ أنظــر قصيتــه Prince oued Pauper Puddden beard Wilson

16 ــ مارتن كونليف . « الادب الامريكى ».

17 ــ لقــد الف تورو Thoreau كتاب والدن «Walden» كحصيلة لتجربته فى الاعتماد على النفس والاعتكاف فى الطبيعة ، ولعل هذه التجربــة تعطــى الدليل على تلــك الروح التى اكتسبها الانسان الامريكى من خلال احتكــاكه ببيئة العالــم الجديد ، كما يتجلى فى هيك نفســه .

Digital © Al-Kalimah

Digital © Al-Kalimah

ادريس الخوري :

الواقعية في الذاتية (2)

توفيــق الشــاهد

2. بــلاغــة بــورجــوازيــة

هناك فى مجموعة (ظلال) ايضا قصص اخرى عالجت بصورة رئيسية خصائص الوضع الذاتى وجنحت فى التعامل معه تعاملا أفقدها حرارة اجتماعية معينة كانت فى السابق مـن شروط الاهتمام بالتناقض والصراع داخـل المجتمـع . ولان الخورى ، كما حددنا فى السابق ظل منجذبا نحو واقعه الذاتى فى غير موضع مما تقـدم فى قصصه ، ولم يتجرد تجردا كاملا عن « هيمنته » على رؤيته السياسية والطبقية ، فقد كان من « الطبيعى » جدا ان يفرز ذاك الانجذاب وتوجه هذه الهيمنة وعيه وحساسيات المثقف « فيه » . لقـد احب الخـورى فى مجموعته (ظلال) ان يتكلم ايضا فيما له علاقة حميمة بمشاكله وقضايا حياته . الامر الذى طبع تلك المجموعـة بمنظوريـن متوازيين . متداخلان فى مرحلة ويفترقان افتراقا لـه معنـى القطيعة النسبية فى مرحلة اخرى ، ولكنهما ابدا يسيران جنبا الى جنـب سيـرا حثيثـا .

Digital © Al-Kalimah

اتلـك مرحلـة انتقـالية فى ابداعـه ؟؟

هناك تفسيرات بينهما تكـامل . الاول : يكمـن فى ان المجموعة هى بالتاكيد نتاج مرحلة فى تطور سياسى وايديولوجى وفنى . بمعنى أنها تجميع لابرز ما كتبه الخورى (بعد مجموعته الاولى) على امتداد سنوات معينة ، تعرض فيها وعيه لتطورات مختلفة تبعا للتطورات العامة على صعيد المجتمع . وقد حدث له فى هذا التطور ما جعله يقف على طبيعة الصراع الطبقى ويحاول الكتابة ((فيه)) ويسجل موقفه من تطوراته . وقـد حقق بذلك خطوة متقدمة . الا أنه استمر يمارس الكتابة ويسجل المواقف من منطلقات سياسية وايديولوجية ((خاصة)) نسبيا ، مطبوعة بالعزلة و ((مخنوقة)) بالترفع . والمسألة هنا وهناك تعود بالاصل الى ضعف الممارسة السياسية العملية ولغيـاب المنظور الطبقى السليم . واذا كان الخورى فى مرحلة ما قـد حاول الحسم فى قضية : لمن نكتب ولماذا ... على صفحـات جريدة ((المعلم)) (مذكرات الصفحة الثامنة على مـا أعتقـد) ودافع عن ((الكتابة الهادفة)) فان الامر لم يكن بمقدوره ، وهو حسم نظرى فقط ، أن يطور الوعى بضرورة الممارسة السياسية العملية كل جذرى للاشكال . وذلك ما تركه ، مع احتمال وجود معطيات أخرى ، يراوح بين اختيارين متناقضين داخل الفكـر البورجوازى الصغير نفسه : الخاص والعام ، الواقع والمثال ... ومجموعته (ظلال) فى رايي تعبر عن هذه المراوحـة . وهي مرحلية وفيها متناقضات جمـة .

الثانى : ويتعلق بالفهم البورجوازى ((النمـوذج)) عـن الممارسة الابداعية والفن عموما . واول ما يدعو اليه هـذا الفهم هو الفصل بين الشكل والمضمون ، العمل اليدوى والعمل الذهنى ، النظرية والممارسة . وهو فهم يرسـخ العـزلـة

Digital © Al-Kalimah

السياسية المذكورة أعلاه ، ويفتح المجال أمام تأويلات ايديولوجية مزيفة عن واقع الصراع داخل المجتمع ، وعن التعامل مع هذا الواقع فى الفن . والخورى اذا لم يكن على اتفاق تام مع هذا المهم ، فهو (ينسجم) مرحليا على الاقل مع اهتماماته كمثقف .

التفسير الاول سياسي والثانى ايديولوجى ، فى حين يمثلان فى تداخلهما طرفى التناقض . وذلك ما يبرر تواجد منظورين هامين على صراع شديد الحساسية فى ذات المثقف البورجوازى الصغير وفى ابداع الخورى — كنموذج — بالخصوص وعندما بينا فى الصفحات السابقة انطلاقا من قصص (الوقوف، فى انتظار الوصول الى انيابسة ، الدرب) غلبة المنظور الاجتماعى ورجحان زاويته النظرية والسياسية ، حاولنا فى نفس الان اقامة الدليل على بروز لمنظور الذاتى وانتماءاته خلفياته النفسية والفردية ، ولكنه كان ثانويا ومجرورا .

(أ) = الا أن قصة (بورجوازية صغيرة / ص 51) التى تحمل مضمونا طبقيا واضحا ولو بالاشارة ، رفعت المنظور الذاتى عاليا وجعلته منظورا يحدد غيره .

لقد أراد الخورى فى هذه القصة (وفى غيرها كما سنرى) وبهذا المنظور ، أن يمثل لتجربة فردية أراد الخورى فى هذه طابعها الخاص طبقية فى رؤيتها العامة . لتجربة المثقف ضمن البورجوازية الصغيرة بكلام آخر . وهذا انتقال جديد يتم فى الموضوع والمادة ، ولكنه انتقال ضمن الرؤية السياسية والايديولوجية التى مرت بنا سابقا وليس خارجها ، أى ليس فى الجوهر والمنهج . لهذا يختار الخورى فى قصة (بورجوازية صغيرة) موضوعا خصبا للمعالجة ومادة متنوعة للدرس ، يتناول فيها وضعا يشارك هو فى صنعه ويدخل من ثم كطرف فيه . فهو يحقق على هذا المستوى نوعا من الالتحام بواقعه

Digital © Al-Kalimah

من خلال دراسة عينية مكشوفة لاوضاع الطبقه التى ينتمى اليها ولفئة المثقفين على صعيد هذه الطبقـــة بالخصـــوص . والقصة (بورجوازية صغيرة) من هذه الوجهة لا تحفل بالاحداث المألوفة منطقيا وتاريخيا ، بل ان كل ما تبدعه هو تركيزها المباشر على اتهامات فئوية ضيقة (شمسة أشخاص فقط كنا وسادسنا راديو مينى كاسيط) فى مكان تاريخى معطى (فى الطابق الاول ... وفى المطبخ اليتيم ألفيتهم جالسين على كراسى فرميكـــة حول طاولة الاكل يثرثرون ..) وفى انقطاع نسبى عن (الوضع الاجتماعى) وانقطاع مؤكد عن الزمن (وحيث يمضى الليـــل تدخل المدينة فى النوم ، الا نحن ، اننا لا نملك علاقة مع الوقت لاننا لا نخض صراعا ضـــده ..) .

وغياب الاحداث المنطقية أو التاريخية فى القصة ، مقدمة فحسب . ذلك أن الذى أصبح بشكل هيكلها ليس آلا « ثرثرة » فارغة ومتشعبة (كنا نتحدث فى عموميات اجتماعية أكيد أننا نفتقد الان الى ذلك الرابط الموضوعى الذى يجعل ليلتنا ليلة منطقية ..) جاء فيها عرضا استعراض علاقة بورجوازية بين الرجل والمرأة (بين نادين ونون) (فى الوسط طاولة قصيرة عليها كتب دراسية ومجلات سياسية وكتب أدبية . لكن نون لا يهتم الا بالمرأة . وبالنسبة له لم تكن نادين الا سلسلة أخرى من السلسلات الانثوية التى يحلو لنون أن يربط نفسه بهـــا دوما .. ففى الصباح يحلم نون بالمرأة وفى الزوال وفى المساء . كانت نادين رقما جديدا وكانت تعرف ذلك ..) .

هناك عنصر غائب فى النص وكان مدار هذه الثرثرة . وفيما بدا أن المجتمعين يتحسرون عليه (شىء واحد نفتقده هذه الليلة ، ولو كان موجـــودا لتالقـــت الليلـــة وتالقنـــا مـــع الليلة) وحاولوا تجاوزه بالصمت والثرثرة (الا أننا مع ذلك كنا

Digital © Al-Kalimah

نتغلب على غيابه بالصمت احيانا وبالثرثرة وتصفح المجلات احيانا اخرى ..) الا ان ذلك يعمل فى النص على اثارة انتباه القارىء ، لان الغائب اصلا ليس الا (الشراب / الخمر) كما يجب ان نفهم .

من هنا يظهر أن النص القصصى (بورجوازية صغيرة) أريد به فى تصوير وضع ذاتى يغلب عليه الاحباط والضياع كوضع ينتمى الى فئة المثقفين على صعيد البورجوازية الصغيرة ولكن ذلك لا يجب ان ينسينا ـ انسجاما مع افتراضاتنا السابقة ـ أن الخورى يعالج من خلاله ايضا بعض مظاهر حياته الشخصية بالذات . اذ النص يكشف عن ذلك بصورة دقيقة . فعدا ما أشرنا اليه من ثرثرة فارغة ورتابة مملة واهتمام بورجوازى خاص بواقع المرأة وتحسر عميق على غياب الشراب .. ظهرت فيه نزعة استعراض ثقافية واضحة (كنت مكوما على الفراش اتصفح احد الاعداد القديمة من مجلة ((بلانيت)) الفرنسية الخاص بالشعر الامريكى الناشز الرافض للحرب والمجتمع الاستهلاك) بالاضافة الى تساؤلات حول واقع الشعر العربى (لماذا يظل الشعر العربى شعرا مهادنا ؟) وقد بدا كل هذا على صورة خواطر ذاتية عابرة ، لا يحكمها رابط منطقى وليست من صنف البناء القصصى او تدخل فى اطار توجيه الاحداث . ومع ذلك فليست هناك حدود فاصلة بين عالم ادريس الخورى وعالم المجموعة التي يدير الحوار على لسانها او ينتمى اليه فكريا وطبقيا . فهو يعالج الجزء ضمن الكل ، ويقدم صورة بورجوازية متناسقة عن اهتمامات ((مثقفية)) فى عالم محبط (نحن دوائر من الرغبة ومن الامتلاك ومن التجاوز) وتافه (يمضى الليل وأحس أننا تافهون . ماذا نفعل ؟). مع ما فى ذلك من تنظير ساذج للضياع الفردى والعمومية الفكرية .

Digital © Al-Kalimah

فالقصة من هذه الوجهة نقطة مختصرة من حياة عـــامة حفلت بالصور وجردت الاحداث ولحنها فى جميع الاحوال اداة واقعيا حياه منه اجتماعيه وفضحت عالمها الذاتى المنع .

(ب) . لم تحن علاقه الرجل بالمرأه ايديولوجيا فى القصـــه السابقه نقطه رئيسيه فى المعالجه ورغم ان الخورى حاول ان يجس من (ندين) عنصر اثاره جنسى يقوم بتعويـــض صـراع حاصل (الحمر) (انظر ص 56 .) وعرض تعلقه (نون) بهذه المرأه كعلاقه بضاعية ، الا أن ذلك كله كان على الهامش من الصراع والصيغ البورجوازيين كموضوعين بارزين فى قصــه (بورجوازية صغيرة) .

وقد جاءت قصة (سقوط فى عدم تطابق / ص 59) لتمثل تلك العلاقه ضمن رؤيه بورجوازيه ، جاعله منها محور العرض والاهتمام ايضا . وذلك على تكوين مترابطين :

1 ــ علاقة الرجل بالمرأة وفهمه لها وبالعكس .

2 ــ علاقة الرجل بالمرأة وموقفه منها .

ومع أن الخورى حاول أن يضع القضية ككل فى اطارهـــا الطبقى ، مبرزا من ثم تفاوتا ملحوظا وقائما فى التصور (على الاقل) بين الرجل والمرأة ــ وهى محاولة ظاهرة من عنـــوان القصة ــ الا أن ذلك بقى فى التناول الفكرى والفنى مندرجا فى فهم بورجوازى عام يبرر أكثر مما يفســـر .

فعلى مستوى الفهم يعرض القاص علاقته بالمرأة (س) كعلاقة الكراهية يحكمها الخضوع (لقد نادت على س أكثر من مرة أن صوتها مبحوح . فى الصالون كنت أتجاهل نداء س عمدا وكنت أتصفح مجلة نسائية . وفى نفس الوقت أتلذذ بهذه الطريقة

Digital © Al-Kalimah

الغربية فى التعليب) ، علاقة مرضية بالاصل يستلذ طرف فيها (الرجل) احساسا منه بامتياز ذكورى سلطوى قمعى ، بتعذيب طرف آخر (المرأة) كتحفة وخادمة وخاضعة ويأتى ذلك فى القصة كتمهيد أولى لوضع تعارض طبقى (فى الوهم) على مستوى العلاقة (بالنسبة لى لم أكن قط مرتاحا ((فى)) وانى هذا المنزل (منزل س). فالصالون انيق جدا وردىء جدا (بالنسبة لى على الاقل). كنت لا احس بالانتماء اليه . وجودى هنا هو ادانة لى ايضا) بغية تبرير ما ستؤول اليه من اختلاف وتناقض فى نهايته . المرأة من جانبها تفهم الرجل (فى القصة) فهما مرضيا ايضا (حملقت فى س طويلا وبدت لى بكل ادانة : معقد . ثم ذهبت) ولكنها تميل عليه (ماشت اياك ان تتاجر بينة . فمجيئك ضرورى وليس هناك رجال خاصون يعقدونك). اى تخضع له فى ظل علاقة انسانية غير متكافئة رسخها المجتمع الطبقى تاريخيا وبررتها الايديولوجية الاستطاعية . وفهمها هذا لا يبدو مشروطا فقط بفهمه ((هو)) ، ولكنه واقع من حيث التاويل الايديولوجى البورجوازى فى دائرته . فعندما تساءلت س (ما معنى رجال خاصون ؟) (قلت لها : رجال لا يشبهونني تماما فى السحنة الغربية مثلا فى طريقة الاكل فى طريقة رواية النكتة ، فى طريقة الابتسام ..) . ومع ذلك قبلت به كطرف عنيد ومتكابر ومشترط (بكسر الراء) فى علاقة مقلوبة من الوجهة الانسانية والديمقراطية أيضا . أما على مستوى الموقف فالرجل فى القصة يتبنى بالكامل أسس فهمه السابق المرأة ويخرج منه برأى صريح يؤكد من جديد تفوقه عليها وتبعيتها له تبعية جنسية مكشوفة فعندما تسأله ((هاء)) (كيف تعرفت على سين ؟) اجابها (انها التى تعرفت على) الا أنه يقر مع ذلك بتفوقها الطبقى عليه وهو ما يدفعه الى الابتعاد عنها (أحس أننى واجهة ولست انسانا ، فلماذا الاستمرار ؟).

Digital © Al-Kalimah

لقد دار الحديث حول علاقة الرجل بالمرأة ، فهما وموقفا ، في مكان محدد (منزل س) وشاركت فيه وجوه نسائيه أخرى (راء ، هاء ..) وتخللته مجاملات كثيرة . ولكن هدف الخورى من ورائه بقى محددا .. أن يصل الى القول بوجود اختلاف جوهرى طبقي أخلاقى جنسي بين ذات الرجل (المرضي) الموصوف في القصة ، وذات المرأة (الغريبة) الموصوفة فيها أيضا . واذا كان هذا قد برر الفراق وجعله فراقا يخفى دنيوية طبقية من طرف الرجل ، فقد برر من جانب آخر لمعظم الاحكام التى صادق بها على دنيوية المرأة خيالة جنسيا .

لقد كانت قصة (سقوط في عدم تطابق) بعبارة أخرى لتمجيد أنانية البورجوازى الصغير في علاقته بالمرأة . كما كانت لاتهام المرأة في عواطفها الانسانية تجاه الرجل . ولقد جرت المسألة هنا وهناك في محيط بورجوازى طغت فيه الاعتبارات الذاتية ، وكبله الشعور المضاعف بالانانية .

(ج) . اذا كانت علاقة الرجل بالمرأة — وقد تحكمت فيها شروط نفسية وفكرية متناقضة — قد انتهت في قصة (سقوط في عدم تطابق) من منظور تمايز طبقى ولكن داخل بنية الفكر البورجوازى وليس في مواجهة ، فما ذلك الا لان الخورى حاول من الناحية الايديولوجية أن يكسب لموقفه من المرأة ، ما يجعله موقفا — ينسجم الى هذا الحد أو ذاك مع واقعه الذاتى . انه لا يرى المرأة ككائن في الواقع الاجتماعى ضمن شروط تاريخية معطاة ومن خلال وضوح سياسى وايديولوجى ، بل يراها كبضاعة من خلال عواطفه الذاتية ونوازعه ، ويتعامل معها على هذا الاساس ، بغض النظر عن أسلوب تعاملها هي معه . والفراق الذى انحلت العلاقة على أساسه كان في الجوهر قرارا فرديا وحيد الجانب اتخذه الرجل قبل أن تفكر فيه المرأة .

Digital © Al-Kalimah

وبت فى تطبيق تم مع ما تبلور لديه من مواقف تجهها ، ومعنى هذا ان النزعه الارادية وليست الموضوعيه ، هى السمه الرئيسيه التي انفرد بها موقف الخورى من المراه .

نسوق هذا للتأكيد مجددا على ان اسعامل الذاتى مع الموضوع والشيء الكائن ، لا يمكن ان يعود عمليا الا الى موقف ذاتى وتخريج ارادى لا يقيمان ادنى اعتبار لشروط الفهم الموضوعى الجدلى . كذلك كان الحال فى قصة (الصورة اطار منكسر / 91) ولكن هذه المرة حيال قضية سياسية على نحو كبير من الاهمية ذات طابع قومى بارز .

والظاهر ان القصة تعالج أساسا موقف الخورى من حرب اكتوبر 1973 ومجمل انعكاساتها على نفسيته . وهى معالجه خاصه بالطبع لان المنظور الذى تحكم فى صياغه الموقف اعتمد على رويه ذاتية بالدرجة الاولى . والقصه لذلك تعبر فى جانب كبير منها عن ((سيره ذاتية)). انها بعبارة اخرى لحظة من حياة شخصيه لها واقعها الخاص وشروطها المحددة . وذلك ما جعل الخورى يعتمد فى بنائها الفنى على تقنية تتوالى فيها المشاهد والتطورات ، ولكن موضوعها يدور أبدا حول شخصية محورية، متفردة فى سلوكها ، مهمومة بمشاكلها ، وتكاد العلاقات التى تربطها بالواقع أن تكون واهية . الا أنها مع ذلك تتعامل بحرارة مع ما يثير وعيها السياسى اثارة حادة . وحرب أكتوبر 1973 فى القصة من هذه الناحية بالذات ، رغم أنها ضمنية ، ليست مركزا لمشاهدة منسجمة أو متنافرة ، وليست واقعا معاشا ، بل هى على وجه التحديد خلفية ضمن سلسلة من الخلفيات ، تحكم كما تحكم الخلفيات الاخرى تصرفات فردية . والشخص (س) فى القصة هو الذى يترجم هذه التصرفات فى علاقات متنوعة بالمدينة بالمرأة بالمقهى بالسياسة .. أى بالمحيط الذى

Digital © Al-Kalimah

يتحرك فيه ولا يجد للفكاك منه أية وسيلة . وبحكم تنوع العلاقات فى المستوى والاهمية ، تنوعت المشاهد فى القصة فى المعالجة والاداء ، وأصبح كل مشهد من الناحية الفنية والفكرية يعمل على تركيز علاقة خاصة ضمن رؤية عامة .

أن (س) هو المركز اولا ، فى ذاته تلتقى عوالم متناقضه (سيكون عليه هذا الزوال أن يفكر فى أشياء كثيرة ، سيكون عليه أن يقرأ طيلة الزوال كله تلك المجلة المعروفة وذلك الكتاب الجديد ، وسيكون عليه أيضا أن يتامل الناس وخاصه الفتيات الجميلات اللواتي يقطعن عليه حبل استرساله فى القراءة .) . ولكنها فى نفس الوقت (أى العوالم) تكشف عن انقسام حاد فى الشخصية (بين أن يكون لنفسه وبين أن يكون للعالم المحيط به). وقد أحب الخورى أن يمثل لهذه التناقضات بهذا الانقسام المرضى، يتمكن بحرية نسبية من اظهار واقع العالم الذاتى كلا (المركز) محاولا عرض شواغله الصغيرة والكبيرة على السواء للتدليل — عن قصد — على وضع « فريد من نوعه » : وضع متقف يراقب الاحداث ، عاجز ، متشكك ، يغازل الحيرة أو تغازله (بين الفينة والاخرى يتجرع كاس قهوة بارد ويسترسل فى القراءة . هل ثمة مجال آخر للخروج من هذه الدوامة ؟) (انه موجود ولكنه لا يؤمن به . كان س يمتلك اقتناعا بان الاشياء غير واضحة تماما . لكن الاحداث الطارئة كانت تكذب كل اقتناعه الجبان). ان هذا الوضع الفريد بعبارة أخرى يقوم على اقتناع فكرى وسياسى (بأن ما يفعله س يوميا يخصه وحده ولا يخص الاخرين) وذلك ما يجعل منه وضعا يحمل كل معانى الفردية والعزلة ، فينعكس ذلك على فهمه للتطورات السياسية (هذا الصباح تناول الجريدة وأخذ يتصفح العناوين والاخبار : « القوات المصرية والسورية تحقق انتصاراً مهما فى

Digital © Al-Kalimah

جبهتى القناة والجولان » . انه يقرأ العناوين والاخبار بنوع من التفرج ليس الا ..) يمثل ما ينعكس على فهمه لمعنى حياته (وحين ينتهى من تصفحها ينتزع سيجارة من العلبة ويشعلها ويبدأ التحديق فى اشياء الشارع .) حتى انه أصبح فى نظـر الاخرين ظاهرة معقدة (لقد قالت له صديقته الطالبة مسـاء البارحة انك سلبى وان عواطفك تجاهى وتجاه الاخرين باردة).

ان س أيضا يمثل اختيارا سيفسيا وايديولوجيا . يبـرر السلبية (يريد الاخرون منى أن أفضل شيئا أكبر منى) والعجز (انهم يغامرون بحياتهم ، كل حركة يجب أنة كون مدروسة ، أنا لست مراهقا) والوصولية (مصيرنا ليس ضروريا نحـن ملتقيان عند نقطة النهاية) والذاتية (هذا يهمنى وحدى ولا يهم أحدا آخر . الى اللقاء ..). وهذه كلها حالات لموقف بورجوازى. انها بعبارة أخرى منظورات بورجوازية للعالم . ومن الطبيعى أن تقود الى اسوأ حالات الضياع الفردى والعدمية الفكريـة (وطوال حياته استمر س يجلس فى نفس المقهى ، يرقب اشياء الشارع فى حين تغيرت الصورة تماما هنا وفى ذلك الطـرف البعيد من العالم ..) .

اذا ما حاولنا ترتيب هذه الملاحظات وجدنا :

1 ــ لقد حاولت القصة ان تتعرض بالتحليل لوضعية مثقف بورجوازى ، يمثل من خلال مفهومه السيـاسى والايديولوجـى للعالم ، ظاهرة معقدة وفريدة فى نفس الآن . وقد عمد الخورى لغاية تبويب اوضاع هذه الظاهرة الى رسم مشاهد متداخلـة لعلاقاتها بالمدينة والمرأة والسياسة والاخرين . فقاده ذلك الى « اكتشاف التناقض القاصم فى ذات المثقف : بين ان يكون لنفسه او أن يكون للعالم من حوله . تناقض بين الاختيارات الذاتيـة

Digital © Al-Kalimah

البورجوازية التى تبرر العجز والوصولية والعدميـة ، وبيـن الاختيارات الديمقراطية التى تفرض مواجهة ملموسة لاوضاع الذات والعالم . وقد حافظ الخورى على طبيعة هذا التناقض ودرس من خلاله النموذج (س) وموقفه من الحرب .

2 — ان الموقف من حرب اكتوبر 1973 (بغض النظر عن طبيعة هذه الحرب واهدافها الملموسة) لا يمكن ان يفهـم فى القصة الا بفهم واقع المثقف البورجوازى الصغير ، كواقع يطبعه التردد والعجز . وقد ورد ذلك فى القصة من خلال التركيز على الاخبار الواردة من الشرق الاوسط وطبيعـة تعـامل المثقـف البورجوازى (س) معها . والجريدة فى هذا المجال تمثل وسيطا سياسيا بين ذاته والعالم الاخر ، كما تمثل مسرحا للفرجـة السياسية فى نفس الوقت . ومن هنا بقى الوعى السياسـى بالحرب فى « الشرق الاوسط » وعيا سياسيا — قبل كل شىء — بالعجز الذاتى . وفى رايى ان الخورى لم يكن يهمه تسجيل موقف محدد من الحرب بالدرجة الاولى بل تحديد طبيعة المثقف الذى يتكلم باسمه .

3 — المركز فى القصة اذن هو المثقف . هو (س) ، هو مركز ذاتى . خصائصه بورجوازية ، علاقته بالمدينة فاترة وتكتنفها الرتابة والغربة ، علاقته بالمراة شبقية ، علاقته بالمقهى مرضية، علاقته بالاخرين سلبية وباردة . والحال ان ادريس الخورى بلغ بالمعالجة مستوى لم يصل اليه من قبل ، وما ذلك فى اعتقادى الا لانه يعالج حالات تنسجم مع اوضاعه الذاتية انسجاما كبيرا. بل يمكن اعتبار قصة (الصورة فى اطار منكسر) تلخيصا — فى مشاهد — للمثقف البورجوازى الصغير الذى يمثلـه ادريـس الخورى تمثيلا صادقا ولحال تناقضاته : بين الاختيار الذاتـى

Digital © Al-Kalimah

والوعى السياسى الديمقراطى ، بين الفردية والجماعية ، بين الواقع والخيـــال .

لقد حملت القصص الثلاثة التى مرت بنا ، ملامح واوضاع طبقية بالدرجة الاولى . والفرق بينها ــ على المستوى السياسى والايديولوجى ــ وبين القصص التى مرت بنا من قبل ، هو ان القصص الاولى انفردت بمضمون يعكس مطمحا فرديا او وضعا ذاتيا . ركزت القصص الاولى على عامل البحث السياسى عن اسباب الضياع الفردى او الجماعى وعلى تعليل هذه الاسباب تعليلا طبقيا فى الغالب وعلى ربط الخاص بالعام ، بينما رجحت القصص الاخيرة واقع الضياع الفردى والنرجسية والانشطـــار الذاتى . الامر الذى يعنى ان القصص الاولى كانت واقعية فى مبناها العام سياسية فى معناها الخاص ديمقراطية فى اختيارها الايديولوجى ، فى حين اصبحت القصص الاخيرة طبقية فى المعالجة ذاتية فى العرض متناقضة فى الاختيار . وهذا ما يؤكد لدينا من جديد ما سبقت الاشارة اليه من ان التناقض فى ابداع الخورى هو تناقض سياسى وايديولوجى بين وعيه الطبقــى وواقعــه الذاتى ، بين مطامحه التقدمية وواقعه البورجوازى الصغير .

صيـــاغة فنيـــة لـــوعـــي بـــورجـــوازي

لم نشر لحد الآن الى ان التعبير عن هذا التناقض (البارز فى ابداع الخورى) لم يكن عرضا سياسيا مباشرا عن «الوقائع»، ام يكن تحليلا مستخلصا من معطيات ذاتية او موضـــوعيـــة استخلاصا علميا ، بل كان فى الواقع تمثلا فنيا لابرز المشكلات التى يعايشها الخورى انطلاقا من وعيه بها وفهمه لها وايضـــا انطلاقا من موقفه منها ، والفرق بين الامرين فـــرق فى نـــوع المعالجة واسلوبها ومنهجها .

Digital © Al-Kalimah

ان الخورى « يبدع » الواقع ، اى يعيد صياغته فنيا وفق نظرته اليه وطريقة معايشته له . وهو يفعل ذلــك فى اطــار ايديولوجى فنى خاص (القصة) عملا بتقنياتهــا وأسلوبهــا فى المعالجة ومراعاة لخصوصيتها التاريخية كشكل من أشكل الوعى الانسانى . ولو أنه أراد أن يعرض الواقع كمــا هو عرضــا سياسيا ملموسا ، لما تطلب منه ذلك أن يلجأ الى « بحثه » باسلوب فنى يطرح سلفا ضرورة توفر شروط تقنية وجماليــة محـــددة .

فهناك اذن ما يكفى من المبررات لكى نتجنب الخلط بيــن أسلوب المعالجة السياسى وبين أسلوب المعالجة الفنى . بين التحليل الواقعى الملموس ، وبين التوظيف الجمالى لمعطيــات الواقع الملموس . ومع ذلك فلعله من البديهى القول أن هذا التوظيف الجمالى هو فى آخر التحليل منظور سياسى للفــن . ومجموعة الخورى (= ظلال) بناء على ذلك هى على وجــه التحديد معالجة فنية لقضايا متنوعة أنطلاقا من رؤية سياسية وايديولوجية . لهذا التحديد اهمة خاصة ، لانه يربطنا من جديد بما حاولنا التأكيد عليه فى مقدمة هذا العرض من ان الخورى يكتب القصة من خلال معايشته للتطورات التاريخية ، السياسية والاجتماعية وفهمه لها . كما ان هذا التحديد يضعنا فى مواجهة نقدية للارضية الفكرية والفنية التى انطلق منها وعبر بها عــن طبيعة هذا الفهم وحيوية تلك المعايشة . وسنحاول فيما يلى أن نفصل الكــلام فى ذلــك .

أولا = تنبنى قصص الخورى فى الغالب على اسس فنية رئيسية ثلاثة : العرض ، التركيز ، النهاية الايحــائية . وهى أسس تتجاوز من عدة وجوه ــ كما سنرى ــ الاهتمام التفكيرى فى بنــاء القصة وتبويب موضوعاتها انطلاقا من حدث مركزى

Digital © Al-Kalimah

بارز يحدد باقى الاحداث الاخرى ، الجزئية او الثـانوية ، او يضمها تحت تصرفه كمحور . ويمثل هذا التجاوز خطوة متقدمة فى التعامل الواقعى مع طبيعة التطورات الحاصلة ، او التى تحصل فى الوضع ، ومع الظروف العامة ومع التنـاقضـات . والامر فى رأينا لا يتعلق فقط بتجريب فنى اريد به تجاوز القوالب الشكلية والجمالية الموروثة فى القصة ، بل وهذا هو الاساس بموقف سياسى وايديولوجى من الفن وطبيعة تعامله مع الواقع الموضوعى مما يجعله تجاوزا واعيا ومدروسا بعناية .

فالعرض من قصص الخورى هو شكل فنى ـ قبل كـل شىء ـ لوضع المشكل الخاص او العام ، ضمن مجال اجتماعى تاريخى مرتبط بالواقع الذى ينطرح فيه . أى أن العرض هو فى آخر المطاف منظور للصراع ، يقوم عليه ويتحدد به . ان عرض مشكلة ، قضية ، واقع ما ـ بعبارة اخرى ـ هو عرض لمنهج بحثها فى نفس الوقت . فالهجرة فى قصـة (فى انتظـار الوصول الى اليابسة) ليست ظاهرة اجتماعية وليـدة نظـام رأسمالى وملازمة له فقط ، بل هى ـ فوق ذلك ـ تكتسـى معنى الحكم الضمنى من جهة على النظام الذى انتجها ، ومعنى الحكم الظاهر على الفئات الاجتماعية الواقعة فى آسارها من جهة اخرى . لذلك اصبحت هذه الهجرة معادلا فنيا موضوعيا لازمة اجتماعية محسوسة ومعاشة طبقيا وسياسيا . وهـذا جانب واحد فقط من الهجرة فى القصة . أما الجانب الثانى فله صلة وثقى بالسياحة ويعبر من ثم عن وضع طبقى آخر متميز... الى آخره . فالخورى كما هو واضح استغل جانب العرض فى المعالجة ليطرح بصورة رئيسية مشكلة اجتمـاعية فى بعديـن : سياحى وبطالى . ولكنه أيضا استغل جانب الهجرة فى العرض ليحكم على وجودها او على معـادلاتهـا النفسيـة والطبقيـة

Digital © Al-Kalimah

والاجتماعية فى ذات الفرد او الجماعة . والعرض بهذه الصورة هو أقرب نهج بين طرح قضية معينة واتخاذ موقف منها . وهو لذلك يفترض وعيا سياسيا حادا بما يلزم دراسته . ولذلك فعندما اراد الخورى ابداء رأى سياسى فى التفاوت الطبقى ، لم يكتف بعرض ملامح التفاوت كما تظهر فى المجتمع من خلال الصراع والتناقض بين الفئات والطبقات المتعارضة فى مصالحها واختياراتها وشروط حياتها المادية ، بل ركز كما لاحظنا فى قصة (الوقوف) على عناصر قد تبدو من القراءة الاولى شكلية ومجردة (عائلة يهودية ، عائلة مسلمة ، مقهى ، شرطة ، طفل ..) ولكنها كانت بصورة دقيقة عناصر لتقريب وضع طبقى من ادراك القارىء بعرض فنى متكامل . وهنا ايضا لم يتهرب الخورى من ادانة الرموز المعبرة عن هذا التفاوت ادانة صارمة . وقد حصل نفس الشىء فى مختلف القصص التى تعرضنا لها بالدراسة . وذلك مع اختلافات جزئية فى اسلوب العرض وطريقته تستجيب لوضع كل مشكل مدروس على حدة .

الا أن العرض كمفهوم فنى فى قصص الخورى ، ليس دائما عرضا فنيا لواقع ملموس معطى تاريخيا ، بل هو بجانب ذلك طريقة لانعكاس الوضع الذاتى وتقدير حالاته الفردية ، وذلك ما نلمسه بصورة خاصة فى قصة (الصورة فى اطار منكسر) ، وقد يكون أداة لبسط خصائص طبقية ظاهرة ومتحكمة فى سلوك فئة أو طبقة اجتماعية ، وقد وجدنا ذلك فى قصة (بورجوازية صغيرة) . الا انه فى جميع الاحوال ياتى فى سياق فهم سياسى وايديولوجى لما يتم عرضه ، وهذا ما عبرنا عنه فى السابق بالمنظور الطبقى للصراع من خلال العرض الفنى . وبينما كان العرض فى القصة الكلاسيكية يهتم بالحدث ، بالشخصية — النمط ، ويكتفى بطرح المشكل أمام وعى القارىء ، اصبح عند

Digital © Al-Kalimah

الخورى يهتم اساسا بالصورة بالمشهد أو بتداخل مشاهد متعددة ويعمل على توجيه وعى القارىء لاستخلاص مدلول ذلك كلــه استخلاصا هادفا (بغض النظر عن محتواه)، وهذا فــرق لا يخفى فقط اختلافا فى منهج القص ، بل وفى نوعية الرؤية وزاويتها أيضـــا .

اما التركيز ، كاساس فنى من بين الاسس التى يقـــوم عليها ابداع الخورى ، فهو عدا كونه خاصية مميـــزة للقصـــة القصيرة ، يمثل طرفا هاما فى المعالجة كما تظهر فى قصصه . بل انه يعتمد عليه اعتمادا كبيرا ، حدا به فى قصة (الوقوف) مثلا الى جعله عنصرا دلاليا قويا ، تولى صيـــاغة موقفه مـــن الظلم الطبقى صياغة بارزة .

ولكن التركيز فى قصص الخورى لا يخـــدم الحدث كمـــا جرت العادة ، بل يطور المشهد . ولهذا علاقة مباشرة بالنزعة التصويرية الظاهرة فى ابداعه كما سنرى فيما بعد . وتطويره لاى مشهد يتم من جهة ضمن أسلوب العرض السابق ، ولاجل استجلاء قضية مركزية تقوم عليها القصة من جهة أخرى ، ففى قصة (الدرب) يقوم التركيز ـــ من خلال عرض مشاهد واقعية لوضعية قطاع جماهيرى مسحوق ـــ بتوجيـــه وعى القـــارىء وادراكه نحو القمع والاستغلال الخفيين ، بل ويبالغ فى الايحاء بها ، الامر الذى يحول المشهد (مشهد الدرب ككل) من ثـــم الى حالة فريدة وخاصة ، تضافرت جميع المعطيات لتجعل منها حالة مؤثرة فى نفسية القارىء . (النص ميدان صراع والتركيز عامل تحديد ، والقارىء عملية استيعاب)، كما ان التركيز فى قصة (بورجوازية صغيرة) قام بصورة خاصة على تجميـــع معطيات صغيرة وجزئية من حياة مجموعة من الافراد يتقاسمون مصيرا مشتركا ، ويعيشون وضعا متشابها ، بل ويعبرون عن

Digital © Al-Kalimah

خصائص متقاربة ، جاعلا منها معطيات لحياة طبقيـة ضمـن البورجوازية الصغيرة . وقد تركزت فى ذهنية فئة من المثقفين . فالتركيز هنا يجنح الى استخلاص الوضع الطبقى من الوضـع الاجتمـاعـى العـام ، فى حين كان فى قصة (الدرب) مهتما باستخلاص الاستقلال من الانسحـاق .

أما النهاية الايحائية ، وقد وردت فى تحديدنا ايضا مـن بين الاسس الفنية التى يقوم عليها ابداع الخـورى ، فتقنية لا تعنى أكثر من أن القاص — وهو يقوم بعرض المشاهد تركيـز القضايا الاساسية فيها — يحشد لاسلوب قصه من العناصر والدلالات والاشارات .. ما يجعله اسلوبا ذا ايحاءات هامة ، تجعل القارىء لا يدرك بوضوح مرامى القاص فقط ، بل ويدخل معه — ايضا — ((فى حوار متبادل)). انها نهايات لها وظيفة رمزية ، ولكن رمزها مالوف . اى أنه لا يخرج عـن طبيعـة العرض الذى تقدم عنها ونوعية التركيز الذى جاء فيها . وهذا الامر يختلف بالطبع عن نوعين من النهايات المتداولة فى القصة القصيرة ذات البناء الكلاسيكى : النهايـة المفتوحة والنهايـة الواقعية . واذا كانت النهاية المفتوحة لا تقطع غالبا برأى محدد فيما هو موضوع لمعالجة الفنية والفكرية ، ويرمى القاص من ورائها الى ((محاصرة)) القارىء بتأويلات شتى ، تكون متناقضة احتمالا أو منسجمة واقعيا وظاهريا مع ((نوع)) و ((حلول)) الموضوع المدروس . وهى نهاية يطبعها الغموض السيـاسـى والايديولوجى فى احيان كثيرة . واذا كانت النهـاية الواقعيـة بمثابة حلول جاهزة أو تكاد لمشكلات التطور التاريخى وقضايا الصراع ... فان النهاية الايحائية المرتبطة أصـلا — كمـا فى ابداع الخورى — بالعرض والتركيز ، تتميز عنهما بنـاحيتين : الاشارة والتوجيه ، اى انها تسهم فى بناء الحـل سيـاسيـا

Digital © Al-Kalimah

وايديولوجيا (قصة : فى انتظار الوصل الى انيابسة) وتدفع القارىء الى افتراضه فى نفس الحين (الوقوف ، بورجوازيه صغيرة ..). وهذا التميز هو ما يمنحها مضمونا واقعيا ويجعلها تؤدي غرضا فنيا (تتشكيل الوعى) ينسجم مع طبيعة القصة القصيرة .

ان هذه الاسس الفنية ، مجتمعة أو متفرقة ، كما يجب أن نفهم ، تعبر عن مفهوم سياسى للفن ولدوره فى المجتمع ، مفهوم طبقى يحمله مثقف بورجوازى صغير تقدمى كالخورى عن العالم وعن مشكلات الطبقة الاجتماعية التي يعبر عن مطامحها بطريقه مباشرة أو غير مباشرة . .اذا كان هذا المفهوم قد تبلور فى ابداع الخورى من خلال ممارسته الفنية على امتداد مرحلة تاريخية طويلة نسبيا (13 سنة). فهو قد يتبلور أيضا وأساسا انطلاقا من الشروط الموضوعية التى تعمل فى ابداع الخورى ذاك عملها الواعي الحثيث .

ثانيا = ان الاسس المذكورة أعلاه ، ترتبط بما أنها لا توجد فى « فراغ » فنى ، بأداة تعبيرية وأسلوب تقنى ومنهج للبحث (أداة + أسلوب + منهج). أى أنها ترتبط بما يجعل منها أسسا متحركة فى النص القصصى (الابداعى) حركة دائبة ذهابا وايابا بين القارىء والمبدع .

والحال أن ادريس الخورى فى هذا المستوى يوظف « ممكنات » ثلاثة : الاستعمال الدارجى ، التصوير الفوتوغرافى، زاوية النظر . وهذه الممكنات جميعا هى ما يمثل اللغة على مستوى المجموعة كأداة للتعبير والتواصل وابداع الواقع فى التحليل الاخير . ولعل ما يلفت النظر فى هذا المجال هو اعتماد الخورى بدرجة كبيرة على « لهجة طبقية » خاصة فى حدود ، لا تدخل لديه ضمن عملية تنويع مستويات الاداء ، بل الراجح

Digital © Al-Kalimah
انها طريقة متعمدة للاجهاز على بنية اللغة ، في محاولة لخنق محتواها الدلالى وايجاد بديل ((عام)) واقعى محلى ذى خصائص ((شبعبوية)) يسمح بنقل التطورات والمشاهد والصور واحيانا باحداث صدمة حقيقية فى وعى القارىء . والخورى يمارس فى جميع الاحوال ، وعلى هذا المستوى بالذات ، ((بلانكية)) فنية ذات صدى لافت ونافذ .

ينفرد الخورى بهذا ولا يجد يدانيه فيه أحد . والمسألة فى حد ذاتها تتجاوز فى اعتقادى شيئا يمكن اعتباره عن خطأ قصورا فى التعبير او عجزا فى الاداء . ان مجموعته (ظلال) تكذب تلك بصورة قوية . بل الراجح ان الخورى يحاول بذلك أن يخلق وضعا ثالثا بين الفصحى والدارجة ، يكون معبرا عن اخلاقيه الاجتماعية أولا (درب غنف) وعن فهمه السياسى والايديولوجى لاسلوب التواصل (النص / القارىء) وعن رغبة فنية فى تكسير الاطار الاعتيادى المنطقى للغة ، ومع ذلك فهى محاولة مفتعلة وسطحية ، لانها تحدث للقارىء ارتباكا فى الفهم والتتبع من جهة ولا تعبر من جهة أخرى عن اجتهاد فنى ذى بال . ولكن الاستعمال الدارجى فى ابداع الخورى مع ذلك ممكن من بين الممكنات الاخرى ، يقوم بخلق رموزه وشروط تأثيره فى النص وعلى القارىء . وهو غالبا ما يأتى فى قصص الخورى فى ارتباط شديد بوضع اجتماعى أو ذاتى لا تستطيع اللغة فيه ، أن تقوم بدور الوسيط (التام) بين القارىء والنص (المبدع)، بين نقل المعرفة وخلق التعاطف .

الا أن الاستعمال الدارج فى قصص الخورى أيضا لا ينفصل عن ممكن التصوير الفوتوغرافى ، بل ان هذا هو الذى يمطيه ((طاقة)) ايحائية خاصة (راجع قصة الوقوف : يشقمها ، اشوف ، القنبان ــ وقصة : بقع سوداء فى وجه المدينة (ص31):

Digital © Al-Kalimah

هيدورا ، كانئنا قهوة كحلا .. على سبيل المثال ..) وغالبا ما تكون هذه الطاقة ((محشوة)) برموز اجتماعية قوية ، تفتح (هي) بدورها باب التخيل واسعا ومجال الاكتشاف فسيحا على / وفى ظاهرة اجتماعية معينة أو قضية سياسية ذات شأن.

أما التصوير الفوتوغرافى ذاته ، وهو اختيار مدروس فى ابداع الخورى (13)، فلا يهتم الا بالتتبع الحسى لمجريات الاحداث والتطورات ، ونقلها نقلا مباشرا من حالة كونها واقعا معاشا فى التجربة الى حالة كونها عرضا تصويريا فى الابداع . والخورى فى هذا المستوى يقوم بمسح الواقع مسحا «بصريا» بنزعة ذاتية سافرة . فالوضع الواقعى المعين يصبح فى قصصه وضعا لا يخدم أى شىء آخر غير حصر المشهد فى لحظة « تطابقه » النسبي (أو الكلى) مع الحالة النفسية والاهتمام الفكرى والرغبة الشخصية . ومن الخطأ الاعتقاد بأن الخورى ، حتى وان ادعى لنفسه امتيازا فى الرؤية البصرية كما جاء فى المقدمة ، يصور الواقع تصويرا حرفيا . فهذه عملية آلية عويصة، وقد لا تكون ذات أهمية كبيرة فى الابداع ، بل انه ينسخ الواقع نسخا ذاتيا . ومن طبيعة النسخ الذاتى أن يكون مستجيبا لموقف الناسخ من الواقع ورأيه فى أوضاعه . والعملية على هذا المستوى تركيبية : انه يرى ويلاحظ ويسجل ، ولكنه لا يفعل ذلك فى حياد ، ومن ثم فهو يبدع أى يقوم مرة أخرى بصياغة ما رآه ولاحظه وسجله صياغة جمالية .

ان التصوير الفوتوغرافى عند الخورى ، هو بعبارة أخرى معايشة شخصية لابرز ما يوحى به الواقع بالنقد أو التشهير . وهو لذلك موقف سياسى قبل أن يكون موقفا فنيا . ولكنه من ناحية أخرى يظل اختيارا فنيا يستفيد فيه الخورى من قدرته على الملاحظة والمعايشة . وهذا ما يكسبه دورا هاما فى

Digital © Al-Kalimah

قصصه ، يجنبه السقوط فى « الشعبوية » جزئيا ويعطى لابداعه قدرة الكشف عن العناصر المتحكمة فى ظاهرة اجتماعية ما ، او المكونة لها ، الامر الذى لا يمكن التوصل اليه بطريقة أخرى الا على نحو رمزى او ايحائى . ومع ذلك فالتصوير الفوتوغرافى يختلف اختلافا اساسيا عن التقرير المباشر ، عن النقل الحرفى الجاف ، فى كونه يبدع الواقع انطلاقا من زاوية نظر ، سياسية وايديولوجية ، ينبنى عليها وعى القاص بالمحيط ، العالم الذى يتعامل معه .

اما الممكن الثالث فهو زاوية النظر هذه بالذات . او ما سماه الخورى فى مقدمة المجموعة « العين النقدية » . وتلعب زاوية النظر فى ابداع الخورى دور تحديد المجال للتصوير الفوتوغرافى المذكور . انها تختار المنطقة المراد « ابداعها » وتعين فيها ما « يستحق » ابداع . ولهذا فزاوية النظر هى فى المقام الاول زاوية للتعبير عن الرأى ، عن الموقف السياسى والايديولوجى . والخورى غالبا ما يختار لزاوية النظر فى قصصه اماكن محددة (المقهى ، غرفة ، الشارع ، الحافلة ، الباخرة) تريخيا واجتماعيا ، وازمنة ثابتة او متغيرة نسبيا (الصباح الليل ..) .. الامر الذى يحول ابداعه الى لقطات سريعة ومتداخلة (انظر : فى انتظار الوصول الى اليابسة ــ الباخرة ، البحر ، الربان ، المهاجرون ..) كما يحوله فى نفس الوقت الى « ميدان » لتبارى المتناقضات وتقاطع خطوطها .

واذا كان التصوير الفوتوغرافى هو بمثابة نقل ذاتى للواقع المتغير فى مجال الابداع ، فزاوية النظر تقوم هنا وفيه باصطفاء ما يصلح لهذا المجال من مشاهدات واحداث وتطورات بغية تكوين رأى خاص فى مجريات ذلك دفعة واحدة او على دفعات، فقصة (الوقوف) مثلا اتجهت منذ البداية الى تصوير واقع

Digital © Al-Kalimah

حى يجرى امام القاص بالتفصيل ، ولكنها سرعان مــا اهتمت رئيسيا بالوضع فى المقهى ، وتطوره منه الى الحديث عن (الطفل) كمركز دال من الناحية الاجتماعية على التشرد . اى انها انتقلت من العام (المشاهدات المنظورة) الى الخاص (المقهى) الى شىء أبعد فى التحديد وهو الاخص (الطفل). وهو انتقــال يحكمــه العامل السياسى فى الجوهر ، لان الخورى لم يكن يهمه تصوير الواقع فقط ، بل وادانته أيضا . وهذا فى رايى يتطابق جزئيا مع ما تكلم عنه الخورى فى مقدمة المجموعة عندما قال بـــأن القصة ((اذ تنظر بعين نقدية ، انما تدين واقعا معينا)) (14). ان العين النقدية بمعنى آخر هى ((عين)) الوعى السياسى .

ثالثا = هناك فى المجموعة أيضا عدة ((لوازم)) جعلت الاسس والممكنات السالفة الذكر تؤدى غرضها الفنى فى تماسك نسبى ، اعطتها قدرة ((ملموسة)) على احياء الواقع فى الابداع. وتتمثل هذه اللوازم فى : الرمز ، التضميــن ، المونطــاج ،ــ المونــولــوج .

ويجب أن نقول بدءا ان اللوازم المذكورة لا توجد منفصلة تماما عن بعضها البعض فى قصص الخورى . بل أننا لنجــد احيانا تداخلا شديدا بين الرمز والمونولوج (قصة : فى انتظار الوصول الى اليابسة) وتداخلا أشد بين المونولوج والمونطاج (قصة : الصورة فى اطار منكسر) وقلما ينفصل التضمين عن المونطاج والمونولوج معا . والرمز فى قصص الخور ليس رمزا معقدا ، تراثيا او ميثولوجيا ، بل هو على جه التحديد رمــز واقعى . انه عنصر مالوفه مستوحى من مشاهدات واقعية ، ولكن أهميته القصوى تكمن فى انه يتحول من رمز واقعى مالوف له تفسير محدد او متعارف عليه ، الى رمــز ذى مستويــات متداخلة ، يحتمل كل مستوى على حده تفسيــرا سيــاسيــا

Digital © Al-Kalimah
وايديولوجيا معينا . والباخرة فى قصة (فى انتظر الوصول الى اليابسة) تمثل ذلك بوضوح كبير . فهى كمعطى واقعى «أداة عبور » أو آلة قامت بنقل الركاب من شاطىء لاخر ، وهــى اخيراً وضعية البلاد ككل. (راجع قصة الوقوف أيضا) .

اما التضمين فغالبا ما ياتى فى قصص الخورى مرتبطــا ومعبرا عن اهتماماته الثقافية . وهو يتوخى من ورائه ، كعنصر فنى ، اثارة « وعى » القارىء من خلال احالته على معطيات متشابهة لما يقوم بالتعبير عنه أو يروم الايحاء به أو الاشــارة اليه . وهناك امثلة كثيرة ، ولعل قصة (اسود وابيض ص 21) خير نموذج يصلــح للتدليل على ذلك .

الا ان هذا التضمين كثيرا ما يبدو اراديا أكثر منه فنيا ، خصوصا عندما يرتكز على موضوعات (ثقافية) وينقلها فــى اشارات عابرة . الامر الذى يحول بعض قصصه الى جولــة سياحية تتولى الذاكرة فيها مهمة الارجاع على حساب الايحاء. ولعل المونطاج هو الاسهام البارز ـــ استفادة وتمثلا ـــ الذى جربه الخورى فى القصة وملك تقنيته ، وهو يرتبط عنده شديد الارتباط بنزعة التصوير الفوتوغرافى ، ويعمل على « تركيب » محتويات « اللقطات » تركيبا سنمائيا وبما أن القصة تقــوم على الفهم وليس على البصر ، وتتطلب جدا ادنى من المعرفة وليس من المشاهدة ، فقد بقى المونطاج دون مستوى «التنسيق» السينمائى ، أو هو مونطاج التحم فيه الفهم بالمعرفة على حساب التحام المشاهدة بالبصر . وربما كان المونولوج ، ضمن اللوازم المذكورة اعلاه ، هو الذى عبر بصورة بليغة عن معظم مواقف الخورى . وذلك بالضبط لانه ينسجم من ناحيــة مع طبيعــة «الحديث» الذاتى . يظهر بواطن الفرد الخاصة سواء فى الماضى او الحاضر أو المستقبل ، كما يكشف عن نوازعه واهتماماته .

Digital © Al-Kalimah

رله الندره من ناحية أخرى على ((انعكاس)) الذهنية الطبقية البورجوازيه الصغيرة بدون رقابه ايديولوجية وسياسية صارمة او حتى ضرورية . وفى قصص الخورى متساهدات مختلفة عمل فيها المونولوج بالخصوص على ابراز واقعه الذاتى والتعبير عن همومه الشخصية . بل أن قصة (الصوره فى اطار منكسر) هى بمعنى ما مونولوجا متواصلا اثر من خلاله علاقته ورد فعله تجاه قضية سياسيه (الحرب فى الشرق الاوسط).

لقد تحركت هذه اللوازم فى اطار الممكنات والاسس الفنية التى مرت بنا . ومثلت جميعا اختيارا فنيا ينطابق بصورة كبيرة مع ارضية الفكرية ، السياسية والايدولوجية التى عبرت عنها مجموعة (ظــلال) .

رابعا = بجانب كل هذا ارتكز ابداع الخورى على محورين هامين على صعيد الاسلوب الفنى ، ويتعلقان اساسا بطريقة التناول من الناحية المنهجية والجمالية . أحدهما يسيــر مــن الخاص ضمن الخاص . وسنحاول أن نقدم مــا يكفــى مــن التوضيحات لابراز ذلك بجلاء :

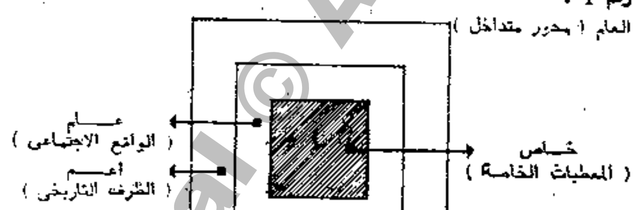
(1) لقد مر بنــا فى قصة (الوقوف) أن الخورى (الحاكى فى القصة) يبدأ فى التعبير عن مواقفه السياسية والأيديولوجية حيال ما يراه فيستجيب له أو يتنقض معه ، مــن وضعيتــه الخاصة كمثقف بورجوازى صغير ، لديه ما يكفى من المبررات لادانة سلوك الاخرين والتشهير به . وقد ظهر لنا فى ذلك أن الحاكى ينطلق من الحاضر كواقع أليم ليتعلق بالماضى كرومانسية ((لذيذة)). وفى هذا الاطار حيثما اباح لنفسه ((حريــة)) الحديث باسهاب عن أجواء التذمر التى تحيط به ، والتى ما هى سوى انعكاس لاجواء تناقضاته الذاتية وتناقضات الواقع الذى يعيشه او يعايشه . الا أن الحاكى سرعان ما وضــع

Digital © Al-Kalimah

لخيالاته كتصور اطارا اجتماعيا ، وبدأ يحاكم الواقع على هذا الاساس . فانتقل لذلك من ذاته الى المقهى ، ومن المقهى الى عرض ملامح التفاوت الطبقى الذى ظهر له فى موضوعات مشخصة (الاسرة اليهودية ، الاسرة المسلمة ، الكلب والطفل، الطفل والشرطة ..) ومعنى هذا ان الخورى انتقل عموديا من وضعه الذاتى الى وضع طبقى على صعيد المجتمع دون ان يحدث فى هذا الانتقال ما يدعو الى انفصال معين بين ما هو خاص وما هو عام ، وهو انتقال فى الدرجة ، أى فى الوعى السياسى الطبقى ، الشىء الذى يعنى أن الخورى — وهو يعالج واقعه الخاص كمثقف — يعالج فى نفس الوقت مشاكل المجتمع كصراعات وتناقضات . ويمكن تخطيط ذلك على النحو التالى :

. شكل رقم I :

الخاص فى العام (محور متداخل)



لذلك يظهر ان اسلوب الخاص فى العام من الناحية الفنية فى ابداع الخورى ، يعبر بصورة دقيقة عن اختياراته الديمقراطية كمثقف بورجوازى صغير تقدمى حيال قضايا المجتمع . وصراعاته الطبقية . وبه يمثل انحيازا واضحا الى

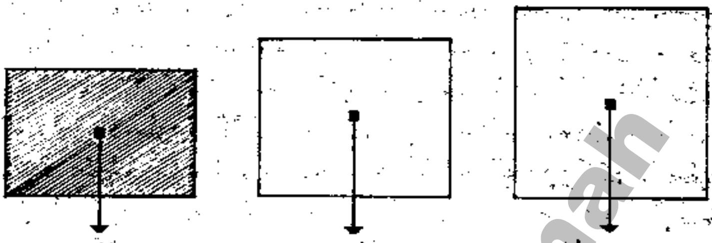
Digital © Al-Kalimah

جانب القوى الاجتماعية الديمقراطية التقدمية المعبرة عن مطامح الحركة الجماهيرية المناضلة من اجل التقدم والازدهار . وفى مجموعة (ظلال) من هذه الناحية ما يكفى لتاكيد قولنا هذا (15) (2). اما الاسلوب الثانى فهو معالجة الخاص ضمن الخاص. معالجة قضايا ومشاكل واهتمامات المثقف البورجوازى الصغير ضمن المعالجة العامة لقضايا ومشكل واهتمامات الطبقة البورجوازية الصغيرة او لفئة (كالمثقفين) من فئاتها . وهو اسلوب يختلف عن الاسلوب السابق فى عدة نقط ، ابرزها الاهتمام الرئيسى بالمعالجة الطبقية (مجموع مصالح البورجوازية الصغيرة او فئة من فئاتها) على حساب المعالجة الديمقراطية (مصالح الحركة الديمقراطية على صعيد المجتمع التى ترتبط بالمصالح العامة او الخاصة لمجموع الطبقات والفئات الديمقراطية). واذا كنا قد لاحظنا فى السابق ان الانتقال العمودى من العام الى الخاص لم يكن عبر انقطاع (معين) وكان انتقالا فى الدرجة ، اى فى الوعى السياسى ، فان الامر فى الاسلوب الثانى لا ياخذ نفس الاتجاه ولا يعبر عن نفس الحركة ، انه فقط سير افقى داخل بنية لها استقلالها النسبى على المستوى السياسى والايديولوجى . ومهما بدا ان لهذه البنية روابط متعددة بالبنية الطبقية العامة على صعيد المجتمع لانها طرف فى صراعاته وتناقضاته ، الا انها مع ذلك تتحدد بوضعها الخاص كبنية لها واقعها المادى الموضوعى المتميز ، كتميز البورجوازية الصغيرة من هذا المنظور عن الطبقة العاملة مثلا . ويمكن توضيح ذلك من خلال الرسم الاتى :

شكـــل رقم 2 :

الخاص ضمن الخاص (محور مفكك)

Digital © Al-Kalimah



وقصة (بورجوازية صغيرة / ص 51) تعبر عن هذا الرسم بصورة واضحة . ولهذا الامر يجب ان نقول ان اسلوب معالجة الخاص ضمن الخاص يعكس بصورة محددة اهتمامات الخورى بمعالجة وضعية المثقف البورجوازى الصغير ضمن الواقع العام للبورجوازية الصغيرة ، انطلاقا من قضاياه (ها) واهتمامه (ها) ومصالحه (ها) أيضا . وهى معالجة يتحكم فيها الواقع المادى لهذا المثقف كمظهر خض للواقع المادى العام على صعيد الطبقة التى يتكلم باسمها او باسم فئة من فئاتها . الا انه من الخطأ تماما اعتبار هذه المعالجة وكأنها تتم فى استقلال تام عن مجموع الشروط المحيطة بالصراع الطبقى فى المجتمع وعن العلاقات الطبقية فيه . الا ان القيمة الفكرية الفنية لهذه المعالجة تبقى فى جميع الاحوال اقل اعتبارا من المعالجة الديمقراطية المذكورة اعلاه .

لقد وصلنا فى نهاية النقطة الثالثة من هذا البحث ، الى القول بان التناقض فى ابداع الخورى هو تناقض سياسى وايديولوجى بين وعيه الطبقى وواقعه الذاتى بين مطامحه

Digital © Al-Kalimah

التقدمية وواقعه البورجوازى الصغير . وقد ظهر هذا التناقض من خلال المعالجة الفنية كتناقض بين اسلوبين : اسلوب معالجة الخاص فى العام ، واسلوب معالجة الخاص ضمن الخـاص ، وذلك مـا يؤكـد :

(1) أن الارضية السياسية والايديولوجية التى انطلـق منهـا الخورى فى البحث تحمل سمات وخصائص الذهنيـة الطبقيـة البورجوازيـة الصغيـرة .

(2) وأن هذه الذهنية ، اخذا بعين الاعتبار الشروط التاريخية الملموسة التى كونتها طبقيا وسياسيا واجتماعيا والواقع المادى الموضوعى الذى تنطلق منه على صعيد المجتمع وتعبر عنـه فى الابداع ، ذهنية ديمقراطية تقدمية مناضلة ولكنها فى نفس الوقت ذهنية متناقضة ومأزومـة .

(3). ان الوعى البورجوازى الديمقراطى (أزاء قضايا المجتمع والصراع الطبقى فيه بصورة عامة ، وازاء مصالحهـا الذاتيـة الطبقية الخاصة) هو الطابع المميز لهذه الذهنية ولتناقضاتهـا معـا .

(4) وان أدريس الخورى (فى مجموعته ظلال) يعبر عن هذا الوعى البورجوازى الديمقراطى تعبيرا خاصا ومتميزا .

المـوقع فى المـوقـف

ماذا نعنى بالتميز والخصوصية ؟.

ان الاطروحات التى دافعنا عنها فى هذا العرض انطلقت بصورة رئيسية من أعتبار الخورى ممثلا (معبـرا ، مبدعـا) ايديولوجيا للفكر البورجوازى الصغير فى المغرب ، الذى هو فى

Digital © Al-Kalimah

نفس الوقت فكر الطبقة البورجوازية الصغيرة . واذا كان من المفهوم ان التدقيق فى هذا ((الموقع)) يستلزم دراسة وافية وشاملة وعلمية لكل ذلك فى شروطه التاريخية وواقعه المادى وضمن الصراع الطبقى بالذات . وهو ما لا نستطيع القيام به حاليا (فضلا عن انه يخرج عن نطاق هذا العرض) فانه من الضرورى مع ذلك ابداء بعض الملاحظات العامة ، تستطيع ان تدلنا على ما عنيناه بالخصوصية والتميز . وذلك فى النقط الاتية.

النقطة الاولى = لقد ابرزنا فى التحليل مدى الاهتمام الذى يوليه الخورى فى الابداع لقضايا المجتمع بصفة عامة ولقضايا قطاعات جماهيرية مسحوقة ومقموعة بصفة خاصة . ومن رأيى ان هذا الاهتمام يعبر عن موقف سياسى وايديولوجى متقدم وتقدمى ، يتعاطف مع النضال الديمقراطى للحركة الجماهيرية ويترجمه فى الابداع بصورة واضحة .

النقطة الثانية = ان هذا التعاطف ينطلق اصلا من وعى سياسى طبقى بالشروط الملموسة ، السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تعيشها البورجوازية الصغيرة بخاصة والجماهير الشعبية بعامة فى المغرب ، من وعى المثقف البورجوازى الصغير التقدمى كمعبر (مرحلى) عن الطموحات الوطنية والديمقراطية لهذه الطبقة وتلك الجماهير . وهو تعاطف له ترجمة ملموسة على صعيد الفن تتجلى فى : الانحياز الطبقى والتعبير الواقعى ونشر الوعى الديمقراطى بقضايا الطبقات المحرومة فى المجتمع. كما ان له ترجمة ملموسة على صعيد الثقافة ويتمثل فى العمل على ارساء قواعد واسس الثقافة الديمقراطية التقدمية المغربية.

النقطة الثالثة = ان ابداع الخورى ، بالرغم من السلبيات التى سجلناها فى السابق ، لا يقر بالحياد المزعوم فى الادب

Digital © Al-Kalimah

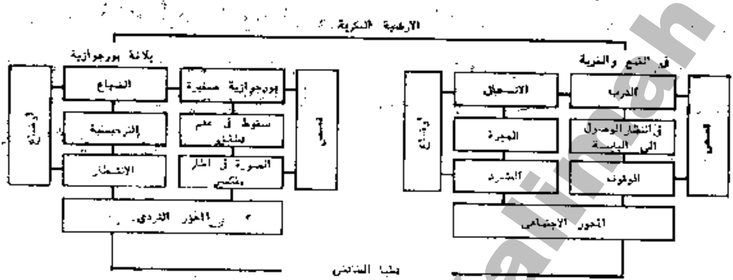
والفن كما تروج له الطبقات الرجعية والمثقفون البورجوازيـون الرجعيـون .

الا ان هذه النقط لا تمنعنا من القول بأن أبداع الخـوري يظل مع ذلك أبداعا يحمل من سمـات وخصـائـص الفكـر البورجوازي ما يجعله قابلا — حسب موازين القوى وتغيـر الشروط الموضوعية والذاتية — للتردد أو السقوط أو « التحالف مع الشيطـان » .

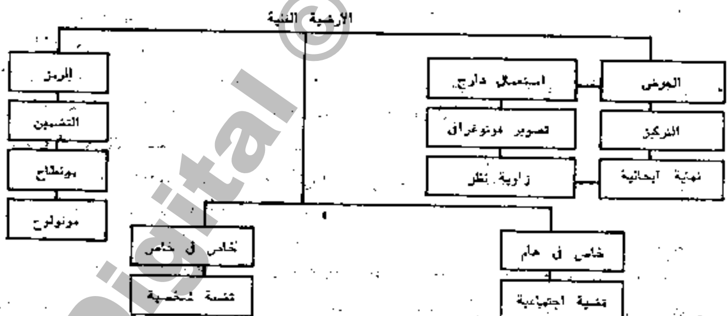
هـــوامـــش :

(1) أنظر المقـدمـة ص 11
(2) مقدمـة ص 9
(3) مقدمـة ص 3 (مدخل محمد زفزاف)
(4) مقـدمـة ص 11
(5) مقـدمـة ص 9
(6) مقـدمـة ص 9
(7) نفـس الصفحـة
(8) نفـس الصفحـة
(9) المقـدمـة ص 11 .
(10) المقـدمـة ص 9
(11) من مقال لم ينشر بعنوان : « الثقافة الديمقراطية ومهام النقد الادبي »
(12) أن هذا التخصص ينبع أصلا من ثلاثة عوامل
— واقعه كمثقـف بورجوازي صغيـر
— انعكاس المقهى في فكره كرمز غير مباشر للتقسيم البورجواري بيـن العمل اليدوي والعمل الذهنـي .
— لطبيعة المقهى في بنية المجتمع كمكان (حسب مظاهر التفاوت الطبقي) اما للفرجة أو للتسلية أو للعريدة أو لتزجية الوقت أو للقمار ...
(13) يقول في المقدمة : « انني أعتمد أساسا على الرؤية البصرية لعلمي أنها تعكس موقفا لواقع معين . ذلك أن العين هي التي تكتب ، هي التي تتخيل » (ص 10) .
(14) المقـدمـة ص 11 .
(15) انظر على سبيل المثال : الدرب ، في انتظار الوصول الى اليابسة ، بقع سوداء في وجه المدينة ، الوقوف ، لاتيراس ، أيلم خديجة البيضاوية.

Digital © Al-Kalimah



ملحق رقم 1 : الارضيــة الفكريــة



ملحــق رقــم 2 : الارضية الفنية

Digital © Al-Kalimah

بشارة الخير

قصــة

سعيد علــوش

أ ــ رسالــة حــب :

حبيبتــي

ها هو شيء ما يمنعني من ان أخاطبك : حبيبتي .

منذ زمن غير يسير والناس تخجل من التناجي بالحــب ، بدعوى ان العصر هو عصر صناعي . وانه لم يعد هنالك من مجال للتناجي بالاشواق المتدفقة على شطآن خالية من المحبين والمحبوبيــن .

لقد عاد من النادر أن نرى شخصان يدآ في يد ، قلبــا في قلب ، عينا في عين . وحتى كتاب «رسائل العشاق» صــدر في حقه حجز ، ومنعه الامام عقب خطبة الجمعة الماضية .

Digital © Al-Kalimah

حبيبتى ، كيف يمكن ان اخاطبك بحبيبتى ، كيف يمكن ان اكتــب اليك رسالة تتقطر عشقا وهياما ، وقد نسى الجميــع كيف يحب الجميع ، وما عاد طائران يتوقفان على غصن واحد، منذ صدر الامر بمنــع التجول والقراءة فى العيون العسلية .

هذا زمن لا يحب فيه الواحــد آخره الا بمحضر ثالــث، وكيف لا وساعى البريــد هو حامــل كتابى اليــك .

آه ، على العصر الرومانسى ، كان الجميع يغمــــض عينيه اثر قبلة الجميع ، واليوم ها هو الجميع ينظر الجميــع اثــر القبلــة ، وضاعت القبلــة .

حبيبتــى .

اما زالت وجنتاك تحمر مع غروب الشمس ، وضفيرتاك، اما زلت تطلقينهما للريح خلفك ، وقلبك ايخفق عندما تقرئيــن خطابى . آه على الزمن الرومانســى . متــى تزوريننــى ، ايــوم الاحــد كما فــى الاحــاد ، لقــد اعادوا طلاء زنزاننى، كــم ارغــب فى رؤيتــك ، أن اراك (خيــرا وسلاما) بثيــاب ليلــة العــرس التى لم تتــم . بيضــاء كالملائكــة ، الذيــن يطرقــون بابى اثــر كل حلم جميل ، احلمــه بالالــوان .

حبيبتــى .

احب الناس الناس كما عهدتهم قبل عشرين سنــة ، يوم كانــت بشــارة الخير : تلــك الفراشة المتنقلــة بين غــرف بيتنــا بشكــل ملفــت .

اتذكريــن كيف كنــا نتحدث اليها كما نتحدث الى عـــم الحــاج فجلجــة :

Digital © Al-Kalimah

ـ ايــن طريق الخيــر يا بشــارة الخيــر ؟

فتدور وتــدور بشـــارة الخير ، لنقف بمحاذاة النافـذة، واهلل انا وايــاك كالاطفـــال .

ايمكن ان تسالى الان بشــارة الخير :

ـ متى نلتقى ؟ وهل بعد ثلاثين سنة فى الجحيم ، يمكــن الحصول على غرفة بالجنـــة ؟

وكمحارب كيف اتصورنى مستلذا للسلم والحب . وانــا العائد من عالم افتقــد الحب ، وافترش برودة الامبــالاة ، هذا الفصــل الابــدى .

حبيبتــى .

تريــن ، كيف انى اناديك بعد كل هذه المـدة بحبيبتى . ان قلبى وحــده لم يتعطل ، اتعلمين اننى اسمع ضرباته كدقات مطرقة حداد ، يشده ايقاع لا نهائى ، يحارب الصمت والموت ، يسبح فى متاهات المستقبل ، كقطار يقطع المسافات ، يقــاوم الحــر والقــر ويعرفك انك هناك .. هناك .. هناك .. فى السجــن الكبيــر .

كان بودى أن أبعث اليك بقصيدة كلها مناجاة وهيام موله، لانى لم اعد اطيق واقعية عصر شجر الحديد ونبات البلاستيك. هؤلاء الذين يذبحون الورود ليقيموا فوقها عمارات داكنة لموظفى الدرجــة السابعــة .

حبيبتـــى .

اذا التقيت محبين ، فهنئهما ، بلغيهما حبى ، رغـــم ما سيصيبهما من عجب آه ، اتذكر الان كيف كان الاستاذ يفيض

Digital © Al-Kalimah

امامنا فى تعريف شعراء الغزل ، هؤلاء الذين احبوا اكثر من جميع الناس ، فى جميع العصور ، اتدركين ما معنى ان نحب اكثر من جميع الناس ، على مدى كل العصور ، فى عصر لم يعد الناس فيه يحبون

حبيبتى .

اليوم ، حدقت طويلا فى صورتك ، كنا فى عناق طويل امام البحر ، لم اتعرف على فى البداية ، ترقرقت عيناى بالدموع ، عندما اخذ البحر يعلونا معا ، واحسست ان الماء يغمرنى ، وعرفت اننا غريق متشبث بغريق ، عندها احطتك بذراعاى ،وكم كنت وكانت نشوتى حين استقر بى التيار باعماق زرقاء ، عندها توحدت بك ، واستسلمت لنوم عميق .

2 — الـرؤيـا :

(خيرا وسلاما) ، كانت كانها جياد ، قوائمها اعمدة كهربائية ، تتجارى فى اتجاه ريح الجنوب . تصعد الفضاء ، تضرب الريح بقوائمها ، تصعد الفضاء ، تضرب الريح بقوائمها ، فيسيل تحت ابورقراق ، والعاصمة وراء المذياع .

— ما اخبار الشرق ؟

— ما اخبار الغرب ؟

(خيرا وسلاما) ، كنت على يمين (آية الله) ، اسائله :

— ان ابعث ببعض جيادك هذه نحو المحيط . كيف تطمع يا (اية الله) كل هذه الخيول ؟ كيف تصل الى تحريكها كا (لاوطوماط) ؟

ضرب على كتفى ، وقال :

Digital © Al-Kalimah

ـ هذه خيول الله ، كانت تنتظر على الخليج منذ بداية الخلق احد (ايــات الله) ، انظر ذاك هو الخليفة ، لم يكن ينام بغير العين الواحدة ، وكنا نحن شيعته ، وجدنا مـن يستطيع ركـوب هذه الخيـل •

ـ سألته ايـن فاطمـة ؟

قـال :

ـ هذه بالمدينة ، انهم يمنعونها من مغادرة الجزيرة ، هى تحت الاقامة الاجباريـة •

سنبعث لها احد الفرسان ، ليأتى بها فى رمشة عين •

ـ سألته عن خاتـم سليمـان ؟

قـال :

ـ انظـر ، ها هـو باصبعى •

قلـت :

ـ جربـه ، حتى تتأكـد الرؤيـا •

قـال :

ـ هـا انـا فاعـل ،

ويا هـول ما رايـت ، ويـاروعة ما رايت ، خرجـت ملايين الخلق تجـول شوارع طهران ، وتحلق فـوق العواصم الاسلامية ، اهو نفـخ فى الصور ، ماذا فعلت ايها الشيـخ ؟ ان كل هؤلاء يهتفون بصوت واحد . بلسان واحد ، كيف خـرج العفريت من القمقم ؟ من يشده نحو الارض ؟ وضربت الخيول بحوافرها ضربة واحدة ، صاعدة السماوات ، وكان ان امتـد

Digital © Al-Kalimah

العالم العربى من الخليج الى المحيط دفعة واحدة ، ولاول مرة، سمعت حوافر خيول المسلمين وهي تعبر الابيض والمحيط والهادى. (كان خيرا وسلاما) أن أمدنى الشيخ برغيف وبصلة وجرة ماء.

قـــال :

ــ هذا طعام الشيخ منذ ستين سنة ، وهل يعقل ان ابلغ الثمـــانين بغير هذا . وحمدل الشيخ ، وانصرف لدمدمـــاته ، موزعا رضوانه على الهدهد والنمل والوحوش الضارية .

(وكان خيرا وسلاما) ان امدنى الشيخ بلعب حربية نبينـــت من بينها طائرات ودبابات وبواخر حربية. جمعها فى سلة ، وقال :

ــ هذه وزعها على الانقلابيين ، لا اريد ان اراك طفـــــلا صغيرا ، لا تعد عندى مـــرة اخرى قبل ان تحسن ركوب الخيل، وتجريـــب هذه اللعـــب .

حملت السلة فرحا ، عازما على ان العب لعبة الكبـــار بلعب الصغـــار ، واربح الحرب والسلم دون خسارة ، ودعتنى (ايـــة الله) ، دعـــى قائـــلا :

ــ لاتنس ايقـــاظ ادريس ، بلغه سلامى ، ابنه ، لماذا تـــرك الشرق ؟ ماذا ينفـــع النوم بالغرب ؟ حدثه ان يكاتبنـــى بما هى عليه الامور فى هذا الجزء من المعمور .

كيف يتهاون تحت قبته ؟ ايستغل الصغار ! شموع ونبائح سنوية ، وهدايـــا الباشوات ، وتجديد الاغطية ، الصابه القر ؟ كيف يتزين الاموات ، ويموت الاحياء تحت شجر الزيتـــون ، وخلـــف معاصر الزيـــوت ؟

لينهض ادريس من غفوته ، لينزل نحو السهول ، ليوقظ

Digital © Al-Kalimah

ابن عاشر بسلا والكامل بمكناس ، وضرب (اية الله) على كتفى ، وهو يدمدم ، وانا انظر اليه ، فاذا راسه طائر يحلق فى مجالات الخلق ، تابعت اجنحته وهى تضرب فى الفراغ . تملؤ الفضاء ، تبتعد وانا غارق فى الرؤية ، فى الرؤيا ، فانقلبت، خشخش تبن اللحاف ، فتحت عينى فى الظلام ، اغمضتها بسرعة ، لم اكن اريد فتح عيناى على غير النور والرؤيا .

3 — وانفتحت السماء .

وانفتحت السماء ، وظهرت بشارة الخير ، تحلق بجناحيها من نور ، دارت وحطت حولى ، فوق هضبة السعد ، حدثتنى، وكان يا مكان من عذب الحديث !

— قم هذه مفاتيح السماء السابعة ، اركب جناحين ابلغ بك الاحلام الوردية ، وكانت شجرة زقوم قريبة منى ، احتميت بها ، رفضت ان اتبع بشارة الخير ، التى اخذت تظهر لى (كساحرة جهنم) ، ولاحت منى التفاتة نحو (الرقراق) ، عساه يمنحنى بطنا متسعا ، كنت أريد ان اغوص فيه ، محتميا من التحليق فى السماوات ، لكن يا هول ما رايت ، كان ماؤه يغلى كما اوقدت نارا تحته ، ونجاره يتوحد بالفراغ وبشارة الخير قابعة فى شكل (ساحرة جهنم) .

(ساحرة جهنم) تقترب منى ، وانا اتضاءل واصغر كلما اقتربت اكثر ، الى ان عدت طفلا فى السابعة ، تاخذنى من يدى الى المدرسة ، وافرح بلباس الزرق ، وياخيبتى عندما اعادتنى فراشة خير اخرى للشارع غاضبة .

اقتربت بشارة الخير الاولى ، والقت بى فوق جناحها الايمن ، واصابتنى سنة من النوم ، وبشارة الخير تحلق بى السبع

Digital © Al-Kalimah

سماوات ، ورأيت ويا مارأيت ، كيف كانت الارض تتقلـــص ، والناس تصغر ، والسحب تمــزق اثوابها .

ولما خفت ان يصطدم راسي بالسماء السابعة ، استفقت ، ونبهت بشــارة الخير انني نسيت فــوق الارض فرشاة أسناني، وشهادة الاعفاء من الخدمه المدنيــة ، لكنها لم تلق الى بــالا. اردت ان اكشف همومي الاخرى ، لكنني تملصت من جناحها ، حاولت أن تستعيديني دون جدوى ، فقد كنت اخترق السماوات ، ارتطـم بالطبقات ، بلغت السماء الاولى ، كانت كل اعضائــي قد تحطمت ، باستثناء عمودي الفقري وراسي . قبلت النجــوم والشمس والقمــر ، تمرغت على السحب البيضاء ، اغتسلت تحت رعايه السماء الاولى ، ثم استانفت سقوطي نحو الارض ، أبحث عن حذائي الجلــدي ، لم أجد رجــلا تسعفني ، أخرجت سروالي من الحقيبة ، لم استطع دخوله اذ لم تكن لدى الاقدام، عندها قــررت اقتناء قبعة ونظارات شمسية .

ناديــت النــادل :

ــ اريد كاس شاي وجريدة وعلبــة سجائر .

اشتقت للجلوس ، ففكرت ان ليس لي مقعدة ، وانه لا يمكن وضع رجل على رجل .

وضع النادل كاس الشاي امامي ، وانا لا استطيع مديد اليه لانني لا املكها ، لا ولا لنقد الثمن .

احسست أنني مضحك للغاية ، عندها ناديت بشارة الخير:

ــ يا بشــارة الخير ، يا (حبيبتي) ها انقذيني .

وانفتحت ابواب السماء ، وظهرت بشارة الخير ، تحمــل اعضائي ، خشبيــة .

Digital © Al-Kalimah

ـ هذه اعضائى ، هذه ليست اعضائى .

قالـــت بشـــــارة الخيـــر :

ـ هى اعضاءك افقدتها بالسماء السابعة .

بكيت بمرارة ، وتذكرت (حبيبتى) ، واقدامى الاقـــــدام ، وبشـــارة الخير ، وانا مبتئس اصيـــح :

ـ كيف احـــارب ، كيف احـــارب ؟

Digital © Al-Kalimah

Digital © Al-Kalimah

الازدحام

(اقصوصة)

محمد ابراهيم بوعلو

ما يزال الدكان مقفلا ، والوافدون عليه يزداد عددهم ، ولا يبرحون بابه .. جميعهم فى انتظار صاحب الدكان ، مصرون على أن لا يغادروا المكان الى أن يحضر ..

صاحب الدكان يعرفهم ، واحدا واحدا ، بل ان له قصة مع كل واحد منهم ، بل وله سجله الخاص يحتفظ فيه بما له عليه من ديون ، ليس ذلك فحسب بل له علاقات مريبة مع أكثر نساء وبنات الحى .. ولهذا فهو يتصرف فيهم تصرف المالك فى ملكيته الخاصة .

تكاثر الوافدون على الدكان ، واصطفوا امام بابه ، وعيونهم تتحاشى ان تقع على بعضهم البعض وكانهم فى حرج من أمرهم .

Digital © Al-Kalimah

لم يتساءل اى منهم عن سبب تاخر صاحب الدكان بل كان يكتفى بأن ينتحى ناحية ويقف منتظرا .. وعلى وجوههم جميعا سحابة من غيظ دفين ..

وصاحب الدكان ينظر اليهم من وراء نافذة بيته المطل على المقابل للدكان ، فى نوع من الاستهزاء .. ان امامه كل وقت لان يغادر بيته ، فمن حقه ان يتركهم ينتظرونه ليعرفوا قيمته ، اذ ان اى واحد منهم لن يستطيع الافلات منه . والا لضاعت عليه فرصة الاستدانة منه ، وبالتالى لن يجد ما يأكل .. حياتهم بين يديه ، وهو الذى يتصرف فيها وفق مـا يريـد .. عليهـم ان ينتظروه ، وان يوسعوا له الطريق عندما يمر ، ويحيونه بأجمل تحيات الصباح حتى ولو ان الصباح يكون عادة قد صار ضحى او ظهيرة .. لا يهم ، فخروجه من البيت يلزم ان يكـون هـو الصباح ، وان شمس نهارهم تشرق عندما يهل وجهه عليهم ..

الاوغاد .. انا اعرف كيف اقوم بتربيتهم ، لم يبق من الحى الا ثلاثة او اربعة ويصبح الجميع تحت رحمتـى .. ويومهـا يدركون جميعا مدى غلطتهم عندما عارضوا فى ان ابيع الخمر .. واعرف كيف اجبرهم على أن يتقدموا بعريضة اخرى يستنكرون فيها عريضتهم الاولى التى وقعوها جميعا ضدى .. يومها ادوس على البقية الباقية من كرامتهم جميعا .. لم يبق الا اولئك الاربعة ويتم لـى مـا اريـد ..

واستعرض وجوه الواقفين ، واحدا واحدا ، ليتعرف اذا ما كان يوجد بينهم الاربعة .. وفى كل مرة يتوقف ليسترجـع قصته مع كل واحد من الواقفين .. فهذا سبق أن قدم لى ابنته لاتزوج منها ، ولكنه عندما اخفق تركها لى زوجة من غير عقد ، وهو ينتظر ان اقع فى حبائلها فى يوم من الأيام واتقدم اليه طالبا الزواج منها ... وهذا لم يتوان فى ان يبعث زوجته الجميلـة لتستدين منى لما لم يفلح هو .. ومن يومها وزوجته تأخذ ماتريد

Digital © Al-Kalimah

على سبيل السلف ... وهذا يحلف بالايمان المغلظة ان اخته تحبنى لوجه الله ، ومن يوم أن قدمت الى الحى وهى طريحة الفراش من شدة الهيام .. أوغاد . كلهم على شاكلة واحدة ، اما بناتهم أو زوجاتهم او أخواتهم .. منافقون .. لا أحد منهم يستطيع ان ينظر فى عينى .. جميعهم يعرفون أننى اعبث بشرفهم، ومع ذلك يبتسمون لى ، ويقدروننى ، ويحترموننى .. ولكن ، لم يحضر اى واحد من أولئك الاربعة ، الذين على أن اجهز عليهم لافرض عليهم جميعا شروطى الجديدة فى التعامل معهم ..

انا لن اغادر بيتى الا بعد ان يحضروا ، او ان يحضر واحد منهم على الاقل ليرى مدى اهميتى بالنسبة للحى .. الحى الذى بدونى لن يستقيم له حال .. ولكن ما السبيل الى دفع هـؤلاء الاربعة الى الحضور ؟ اليس من الممكن ان اوعز الى من يذهب فى طلبهم ؟

كان على أن اخطط لكل واحد منهـم لا أن اتـرك ذلـك للمصادفة .. حقا ، ان ظروفهم الاقتصادية تسير من سيىء الى اسوا ، ولكن قد يطول انتظارى قبل ان يقدموا الى صاغرين ..

وفتح النافذة ، فرفع الوافدون عيونهم ينظرون اليـه ، وصاح هو طالبا السمسار ان يصعد اليه ، ثم اقفل النـافـذة بشـدة ..

عندما حضر السمسار طلب منه أن يستقـدم (المعلـم العربى) حالا فى صفقة مغرية ، والح عليه ان يسرع .. ثم رجع وراء النافذة يسترق النظر الى جمهوره الذى ينتظره على احر مـن الجمـر ..

وفكر صاحب الدكان فى طريقة تنظيم مغادرته البيت لهذا الصباح .. عليه أولا أن ينتظر ظهور (المعلم العربى) فى الحى، وعندما يقترب من الدكان ينزل هو بسرعة ويتجه صوب دكانه بكل وقار ، والجمهور من حواليه يوسع له الطريق .. على (المعلم

Digital © Al-Kalimah

العربى) أن يشاهد كل ذلك ، وهو سيفتح باب دكانه أولا ، ثم يشرع فى قضاء حاجات الزبناء ، من غير أن يلتفت الى (المعلم العربى) حتى يشعر بأنه تعب من الانتظار اذ ذاك سيستقدمه من بين الجموع فى حفاوة بالغة من غير أن ينسى أن يعتذر له عن كثرة الزبناء .. ثم بعد ذلك يعرض عليه بكل دهاء شراء منزله بالثمن الذى يهوى ويريد ..

وتعلقت ابصاره ، مدة طويلة ، ببداية الحى فى انتظـــار ظهور (المعلم العربى) حتى بدا له أن السمسار قد فشل فى استدراجه اليه ، وخاصة بعد ان شاهد السمسار قد اقبـــل مهرولا .. ولكنه ابتسم بعد حين ابتسامة الظافر عندمـــا راى (المعلم العربى) يتقدم بخطوات وئيدة .. واسرع ينزل الدرجات بسرعة فائقة متجها نحو الدكان ..

وكما كان متوقعا فقد افسح له الجمهور الطريق ، وهو يسير الهوينى مختالا .. وعندما اقترب من باب الدكان شعر بشـــدة الازدحام .. فصاح فى زبنائه ان يفسحو له الطريق ، ولكنـــه تعجب عندما اعترضوا طريقه .. وهددهم بانه سيعود من حيث اتى اذا هم لم يفسحوا له الطريق .. غير انه اصيب بهلـــع شديد لما وجد انفاسه تكاد تنقطع ، حاول ان يعتلـــى قليـــلا لستنشق الهواء ، ولكنه شعر بانه يكاد يختنق ، وانهم يمسكون به من كل عضو من اعضائه ، وان هناك من ينقض على عنقه بغلظة .. وشعر بان انفاسه تتسارع ، ثم لم يعد يشعر باى شـــىء ..

وانفض الجمع من حوله ، وبدا جثة هامدة تتوسط الحى ..

كان المعلم العربى يقترب فى خطا وئيدة .. وعندما انتهى الى جثة صاحب الدكان انحرف عن اتجاهه بعض الشىء وتابع طريقه من غير ان يعيره اى انتبـــاه ..